رواية

النَّهرُ يعضُّ على ذيله

إسماعيل غزالي

دار العين للنشر

مادة محمية بموجب حقوق

النّهْرُ يعُضّ على ذيْلِهِ

روايـة

إسماعيل غزالي

الطبعة الأولى / ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفي إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٧٣٦٥/ ٢٠١٥

مادة محمية بموجب حقوق النشر

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 311 - 3

مادة محمية بموجب حقوق النشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

غزالى، إسماعيل

النّهْرُ يعُضّ على ذيْلِهِ/ رواية: إسماعيل غزالي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٥

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٣١١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٧٣٦٥ / ٢٠١٥

مادة محمية بموجب حقوق النشر

I

أرْيانا
(هذيان زهْرة الدّفْلى)

مادة محمية بموجب حقوق النشر

1
الخرُوج من برُودوايْ

مسْرح "برودوايْ" التّاريخي في ذمّة النّار!

هو العنوان الصّاعق لاحتراق مسْرح برودوايْ الغامض، تتناقله الجرائد وقصاصاتُ الأخبار على التلفاز والإذاعات. كان المصوّر "لوكيوس" قد هرع على تخوم الفجر إلى المكان الفاحم بعد أن هاتفهُ رئيسُ تحرير مجلة "قيامة وأبدية"، لم ينمْ لحظتها لأنّه قضى ليلةً حميمةً مع الممثّلة "وليتا" في شقّته بحي "منهاتن" في قلب نيويورك. الليلة التي سجّلت درجةُ الحرارة أدنى نزولٍ لها في تاريخ الشتاء الأمريكي، 50 درجة تحْت الصّفر، كأنّ الأمر يتعلّق بزمنٍ جليديّ طارئ. خلتْ نيويورك لحْظتها من مدْمني السّهر، وبدت الشوارع طاعنةً في البياض من فرْط الثلج. ثلجٌ ندف بضراوة، واستشرس في الانثيال مشفوعا برياح صاقعة كأنّها تجرّ وراءها عواء الذئاب. كما لو أنّ صوف الخرْفان الشعثاء التي عبرت التاريخ حُلِجَ موجَزُهُ بتلك اللحظة الشّعواء، ولا ينقص المشهد إلا زحْف الدّببة القطبية.

عن بكْرتها خلت المدينةُ وألمّ بشارع برودواي الصّاخب الصّمت على غير عادته، هجره زعيقُ السّهر وكانت الفرْصة الأمثل للأشباح كيْ تعرْبد في فراغه المفْزع. في تلك الليلة الملْعونة احترق المسرحُ الأسطوريّ وأيّ كارثة فاجعة ألمّت ببرودوايْ، أنْ يختفي طراز أوّل مسْرح في الشّارع الشّهير...

وجد لوكيوس المسْرح قدْ آل إلى طللٍ خرائبي...

وهو يلتقط صورا للجريدة، اعتمرت ذهنه وجوه الممثلين والممثلات الذين مهروا أبديّة هذا الصّرح الشّاهق، تراءتْ له الوجوهُ منْهمرة من السّخام والدّخان، وخلْف تلك الوجوه اندلعت أصواتُ المسرحيّات المريبة التي وشمت أثرها في ذاكرته. أصواتٌ هذيانيّة، هستيريّة، أوبراليّة، ذات رجْع مأساويّ وصدى فجائعيّ كأنّها ترْثي المسْرح المحترق، أو كأنّها تشخّص نهايته التراجيديّة في مشْهد متخيّل أخير، وأمّا الموسيقى التي دارتْ رحاها عبر أمسيّات خالدة، فقدْ تناهى إلى سمْعه وقْعُ زحْفها المدوي كأنّ الرّياح الثلجيّة فتلتْ من رجْعها الخفيّ صفيرها المفْزع الحاد... أيقظ الحريق أطياف صورة مرعبة بزغتْ من قعر ذاكرته، من بئر شطون في داخله، شوشت عليه بحدّة، فانتابته حالة اقشعرار ودوار، هي أطياف صورة لحريق بكْر، مبهم، وشمَ طفولته، لم تنطفئ جمرته اللاهبة وإن تكارست وتلازبت فوقها طبقات رماد صلدة.

في اليوم الموالي لحريق مسرح برودواي الفاجع، هاتفته الهنديّة الحمراء "أريانا" في مكتب الجريدة، وطلبته بإلحاح في أمرٍ طارئ. حتّى لو لم يكن الأمرُ ملحّا أو طارئا، فشرفٌ عزيزُ

مادة محمية بموجب حقوق النشر

المطلب أن تتلقى هاتفا فاخرا من امرأة شاهقة كالممثلة "أريانا" الشهيرة بلقب "الهنديّة الحمراء". جمح به الظنّ بداية وتوقّع أن يكون للأمر علاقة وطيدة بحريق المسْرح، غير أنّها فاجأته بمقترح مريب ما كان ليفوّته، التقيا خلسة في بيْتها المشيّد من خشب الصّنوبر على ضفّة نهْر "هدسون" شرق نيويورك، ولم يستغرقْ صمتها إلا دقيقة حين لهجتْ بحماسٍ صلْبٍ:

– أريدك معي في رحلة عاتية طالما أجّلتها وقد آن أوانها.

– رحلة؟

سألها بريبة واستأنفت تحكي بارتعاش لاهب وناهب:

– أجل، رحلة جسورة حلمتُ بها طويلا، وحياتي فراغٌ أسود إنْ لم أنْجزها والآن بالذّات.

كيف تكون حياة ممثلة طبقت شهرتها الآفاق فراغا أسود؟!؟ هذه التي دمغت أثرها الغائر في ذاكرة شارع برودواي، وحفرت وشومها الأبديّة على رخام كينونته على مرّ ثلاثين سنة، ثلاثون سنة حافلة برصيدٍ سامقٍ من المسرحيّات العظيمة والأفلام المريبة، شغلت بها مدينة نيويورك والعالم؟؟؟

تساءل بينما واصلتْ تلهجُ بصوت تعتليه قشْدة الرّعشة:

– هذه الرّحلة هي أعظمُ عندي من كلّ ما راكمْتهُ في مسرح برودوايْ من مجْد، بل أعظم عندي من أوديسا هوميروس نفْسها.

خالها لوكيوس رحْلة في أمريكا بدايةً، غيْر أنها بدّدت سحاب توقّعاته وصعقتْه حين قالتْ: سأكون مسرورة لو رافقتني في رحلتي إلى المغرب.

– المغرب! نبس لوكيوس مباغتا بدهشة المفاجأة.

أيْ نعم، نطقت الهنديّة الحمراء بالتذاذ ويقينٍ صلْد. ألمّ به خرسٌ طفيفٌ من فرْط الذّهول وأردفتْ هي:

– طبْعا ليْس لأنّك مولعٌ بالمغرب أطلب منك هذا الأمر، بل لأنك مصوّري الفوتوغرافيّ الشّخْصي ولا يمكن أنْ أستغني عنك في هذا السّفر الملحميّ.

مرقتْ في وجهها أطيافٌ إغريقيّة ورومانيّة طالما كانت تومئ بها ملامحها الغريبة، ووجد لوكيوس نفسه يردّد كلمة المغرب، بينما استمرتْ تقول:

– قبْلها عندي لك مفاجأة. سنسافرُ إلى روما أوّلا.

ظنّ الأمر يتعلّق بتصوير فيلم جديد، وهو ما نفته في الحين.

– الأمر شخصيّ جدا، وإن كان عمليّا أيضا.

شخصيّ وعمليّ، كان الجواب سديميّا.

ندّ منه همس:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

– منذ خمس عشْرة سنة لم أزرْ روما.

وأردفتْ هي:

– لن أجد بديلا عنك ليوثّق بالصّور رحلتي الطروادية هذه.

أرْبكه مقترحُ الهنديّة الحمراء، وخلخلتْهُ حماسةُ إصرارها وابتهاجها الطّفولي وهي تحكي له عن الأمر. لكنّ اللعينة كما لو كانت تحكي عنه، أيقظت حلما تحجّر بداخله طالما أجّله أيضا، فمن ثلاثين سنة لم يزرْ المغرب، ارتحلت به السيّدة الإيطالية "سالفيا" بعمر الخامسة عشر ورجعت به إلى روما، حدث هذا بعد وفاة أبيه – بالتبنّي – الملقّب بدافنشي أزمّور. ظلّ المغربُ حقيقة داغلة في أعماقه ولم يتحقّق له نسيانه وإنْ نهبه صخب الحياة الطائشة في روما، واستأثرت باهتمامه دراسةُ تاريخ الفنّ، كان طموحه أن يصير مخرجا سينمائيّا، غير أنّ ولعه بالتصوير الفوتوغرافي كان الأقوى وحاسما في احترافه، وبعد الاشتغال مرّات وكرّات كمدير تصوير في أكثر من فيلم إيطالي، إلى جانب مخرجين قديرين وعتاة، من إيطاليا وروسيا والسويد، انتقل بعد وفاة السيدة الإيطالية "سالفيا" إلى أمريكا، نيويورك بالتحديد، وتوزّع عمله بين أشهر مجلة "قيامة وأبدية" واستوديو خاص "ميدوزا 3000".

تعرّف على الهنديّة الحمْراء في عرض مسرحيّ لها سنة 1960، كانت تشخّص دور "ميديا" المرعب، والتقط لها صورا لصالح مجلّة "أطلنتيك سينما". أعجبتْ بالصّور، فانتدبته مصوّرا شخصيّا لها، لكلّ مسرحياتها وأفلامها. قليلون يعلمون بأصولها المغربيّة، ويعتقدونها من أصول إغريقيّة بجنسيّة روسيّة، أثاره الأمر عندما كشفت له عن هويتها المغربيّة، وكان إسمها الحقيقي هو "يامنة" وأمّا لقبها "أريانا" فله حكاية أخرى.

2
بيغاسوسْ

– كيْف ستحلّق الطائرةُ في يوم مثلجٍ، تتراشقه الأنواءُ كوسادة بيضاء؟

قال لها مشاكسا وهو يلتقيها في الموعد بمطار جون إف كينيدي، في القاعة 11، على مقاعد الانتظار.

– أتظنّ أنّ يوما أثيرا كهذا سيستعصي على حصاننا بيغاسوسْ...

لم ينتبهْ إلى أن الطّائرة فعلا، لها شعارُ الحصان الطائر، الأسطوري بيغاسوس. رسم ابتسامة ذهول وقال:

– بلى هو يومه الأمثل للطيران...

مادة محمية بموجب حقوق النشر

لم يسْألها عن الأحْوال بعد وهو يرتكن المقعد لصيقا بها، حتّى وجدها تتمتمُ:

– الشّيء بالشّيء يذكر، تخيّل ولادة طفلةٍ شتاءً. في بيْت أعْزل على سفح جبل. الجبل شاهقٌ يطلّ على نهْر أفعواني. جبلٌ يبدو كما نصب لبركان انفجر في زمن غابر. يحيل على ذلك قمّته الدائرية الشبيهة بفوهة. لحظة الولادة تلك كانت السماء تندف ثلجا فيما طيور الحذف الشتوي تغرغر في النّهر، عندئذ كانت المرأة الحبلى خارج البيت تطمئنّ على فرس بيضاء حبلى بالإسطبل، فداهمها المخاض، اللحظة التي انزلق فيها الجنينُ من المرأة على التّبن وندّت منه الصّرخة البكْر، كانتْ هي نفسها لحظة المخاض الذي داهم الفرس البيضاء التي دلقتْ مهرا... لفّت المرأة جنينها بالقشّ مع ثوْب خشن فيما الفرس البيضاء تصْهل جفلة وتدنو من مهْرها المرتعش باصطفاق... حاولتْ المرأة بمشقة الرّجوع إلى البيْت، وكانتْ تسحبُ مشيمتها على الثلج فيتضرّج البياضُ بدم الولادة الوحشيّة... الفرس تصْهل جفلة ما تزال مشفوعة بغرغرة الحذف الشتوي في النّهر... جفول الفرس من استشعار أكيد لدنوّ ذئب من الإصطبل... تتبع الذئب الرّائحة ووقف يشمّ الدّم المنسكب على البياض وهو يحاول أن يتذوّقه بلسانه المفرط في الحمرة، فيما البخار يندّ من أنفاسه الفائرة، هرعت إليه كلاب المنزل المشعثة وسددتْ له رصيدا وافرا من النباح فتراجع الذئب وقفز واثبا خلف شجرة بلوط راكضا باتجاه سفح الوادي. ركضت الكلاب مظفرة بنباحها المدوي خلفه متوعدة إياه بمطاردة لا تحمد عواقبها. حينئذ دخلت المرأة البيت الأعْزل وبادرت بإشعال النّار بعد أن دثّرت الجنين بفراش قطنيّ مهترئ وهيّأت ماءً لكيْ تغتسل... الزّوْج كان غائبا مع بناته في المدينة الصغيرة المجاورة، والبنتُ الوحيدةُ التي تركها لكيْ تترصّد أحوالَ أمّها الحبْلى خرجتْ لتطارح الغرام مع أحد الرّعاة في الغابة السّوداء...

خالَها لوكيوس ترسمُ مشْهد حكاية تقترحها لفيلم... لحظتئذ اندلق صوت الموظّفة في الميكروفون، منذرة المسافرين على متن الطّائرة "بيغاسوس" بالتوجّه إلى البوّابة رقم 17. نهضا معا وهو يعلّق بذهول:

– كأنّها بداية قوطيّة لفيلم قوقازي...

رسمتْ ابتسامة غائرةً وهي تسلّم الجواز للموظفة التي أبهرها وجود الهنديّة الحمراء وهمستْ للوكيوس:

– تلك المرأة الحبْلى كانت أمّي، والجنينُ كان أنا.

كأنما شكّته بمهْمازٍ فاقشعرّ جسدهُ... بلع ريقهُ وتساءل إنْ كانت قد بدأتْ هكذا بدون مناسبة في سرْد سيرتها، أمْ هي صورة هاجستْ ذاكرتها ولفظتْها كيفما اتفق.... أمسك بجوازه من الموظّفة وتقدّم خلْف الهندية الحمراء في الدهليز الأبيض صوب الطائرة مخمّنا: لو كانتْ الفرضيّة الأولى راجحة سيكون الأمر مريبا. توسّم مشقّة فادحة فيما هو فيه، إنها حظوةٌ أن يتجشّم عناء فضيلتها، أيْ نعمْ عناء، فتلك مسؤولية عارمة يجب أن يكون أهلا لها، في مستوى ثقلها وإن كانتْ مغبطة... الرّحلة ليست لتوثيقها صورا وحسْب، بل ثمّة سيرة امرأة خرافية يجب الإنصات لذهب تفاصيلها أوّلا، والاستمتاع بمكاشفات أسرارها الباسقة، ثمّ يجب عدم نسيان أيّ ضلْع من أضْلاع متنها الحكائيّ الثريّ والمدهش. هكذا انتابته مشاعر ذات تموّج متناقض ومتوتّر، وفكّر هل يكتفي بما تسجّله ذاكرته ويترك الأمر لمحْض التلقائية والعفوية، أم يعجّل بتدوين الشرّارات التي تندلع من

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الهندية الحمراء في دفْتر خاص... ولأنّها رحلة غجريّة كما يردّد لسان الممثلة الطروادية، قرر أن يكون غجريا أيضا وعوّل على ذاكرته وحسب، خشية إن اكتشفت الهندية الحمراء أمر تدوينه لما ينفطرُ عنْها من التماعاتٍ، ستتبرّم وتمسكُ عنْ الكلام...

مع إقلاع الطّائرة استمرّت تقول:

– دمُ الولادة الذي ضرّج الثّلج كما لو كان كتابة سومريّة أو خطّا فينيقيّا... علامة حضارة غابرة أو إمضاء برْقٍ على معْدن... مهما يكن فهو عنوان كتابي الأمازوني الضّاري... أحمر لا يشبه زهْر الخشْخاش ولا دم الأضحيّة أو الفريسة ولا نجيع مغدوري التاريخ أو دم البلاشفة...

أحمرُ مجرّات سديميّة تعسكرُ في دوّامات متحوّلة لانهائيّة هو أصْل الألوان عنْدي، لا يضاهيه غموضا وغوايةً إلا الأبيضُ، أبيضُ الثلج الذي لامس أوّل سقوط شرس لجسدي... الأحمرُ يسكنُ خلفيّة أحلامي وكوابيسي وإغماضاتي... يخضّل الأزل... وأمّا البياضُ الثلجي فأبديّة تلي القيامة.

سرح لوكيوس بعينيه بعيدا على الغيْم وقد اعتلتْهُ الطائرة "بيغاسوس" واستوتْ فوْقهُ. أنْصت بإمعانٍ للصّور التي اجترحها نصْل لسان أرْيانا. تخيّل دم خيط المشيمة على المزْن من النّافذة كما رسمتْهُ مخيّلة الهنديّة الحمراء. تناهى إلى مسمعه صهيل الفرس البيضاء الجفلة لحظة الولادة. تخيّل أكثر الغيوم البيضاء كجحافل أحْصنة. ثمّ استرْعى انتباهه أكثر أنّ الجبل الذي ذكرتهُ الهنديّة الحمْراء يطلّ على نهْر. فهو نفسه من مواليد مدينة نهريّة والبيتُ الأوّل الذي شهد انزلاقه إلى الوجود كان منتصبا على الضفّة، حيث مصبّ النهْر الصّامت في المحيط الأطلسي. خطرتْ له فكرة أن يسألها عن إسم النّهر، وأجّل ذلك إلى حين، ووجدها تستأنف الحديث كما لو تهْذي:

– أطلقوا على المهْر إسْم "أملاّل" أيْ الأبيض، لأنّه طاعنٌ في البياض، وأطلقوا عليّ إسم "يامنة"، وإن كانوا لا ينادونني إلا بإسْم "تاكمارتْ" أيْ أنثى الحصان. المهْر كان توأمي، بيننا نشأتْ علاقة غريبة، فلا نفترق إلا لماما.

نسيَ لوكْيوس أنه يحلّق في طائرةٍ صوْب روما مدينة مربّيته "سالفيا"، البلد الذي لم يزرْه من خمس عشْرة سنة. غاب عن ذهْنه أن يسأل عن سبب الوجهة إلى إيطاليا وما الذي ينتظرهما هناك. وجد نفسه بغتة يستحمّ في نهْر أرْيانا أو يامنة، نهْر حكاياتها الذي اندلع فجأة، إنْ مصادفة أوْ بتدبير خلّاق... أغواهُ نهْر الغجريّة الحمْراء، واستشْعر برهبة قيمة أنْ يحظى بسماع نُدف تلك التفاصيل السّحْرية شخصيّا من لسانها الجليل... كان يُدْرك تماما أنّ إيقاعا ما ترسمهُ الهنديّة الحمراء، ولمْ يشأ أن يشوّش عليْها، فلمْ يك ليتدخّل إلا في المنعطفات الحقيقة بذلك...

– ولادة المهْر كانتْ لحظة ذات غبطة شاهقة للأب المولع بالأحصنة، فالمهْر هو آخر العنقود من سلالة خيول بربريّة، يرجع تاريخ نسبها لحصان جسور، لا يشبه أحصنة قبائل "أيت سكوكو" كلّها بالأطلس المتوسّط، لأنّه الحصان الذي اعتلاه الثائر "أزكّاغ" في معركة وادي المئويّين، فشهدَ موْت "أزكّاغ" البطولي وسط عاصفة الرّصاص المنْدلق...

"أزكّاغ" كان جدّ أبي "بيسان". تخيّلْ مهْرا هو أملُ سلالة حصان ثائر – دمغ ذاكرة الأطلس والمكان – في الامتداد والتناسل والحفاظ على النّوع النّادر.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

هاجسَ لوكْيوس شعورٌ بأنّه يحْلم. فلمّا صمتت الهنديّة الحمراء عند تلك النقطة وطلبتْ شايا. اعتذر لها وذهب في اتجاه المرْحاض. لم تكن مثانته ممتلئة أو محتقنة، لكنه جرّب بالفعل أن يرى وجهه في المرآة، أن يتحدث إلى نفسه أو يقرص جلده لكي يتيقّن من أنه ليس محض حلم. التبس عليه الأمر لأنه وجد نفسه فجأة داخل سيناريو فيلم غريب. لم يعتره شك في ما تحكيه أريانا على أنه مجرد تخييل تقترفه على سبيل الاستئناس حتى يقاومان مسافة الرّحلة. تساءل كيف صمتتْ هذه الممثّلة الشعْواء عن تفاصيل مثيرة ومريبة لسيرة كهذه، ولم تطلعْها على أيّ مجلة أو جريدة أو تكشف عنها في حوار تلفزيّ أو مهرجان طيلة العقود التي اعتلت فيها خشبات برودوايْ، وكلّما صعدتْ خلدتْ نجومها في سماء المشهد الأبديّ.

أقفل راجعا وجلس من جديد فيما هي مغمضة العيْنين. اعتقدها انخرطتْ في نوْم طارئ، غير أنها استأنفتْ تقول:

– موجعة هي حكايةُ المهْر أملّال، فالفرسُ البيضاءُ التي أنْجبته توفّت بعْدئذ بسنة. لم يكنْ قد أصابها شيء. كلّ ما في الأمر وفق ما تحكيه أمّي، أنّ شخصا مريبا يدعى "بوثجناو"، أيْ سيّد الرّعود، وهو شخْصٌ غريبٌ يطوف حول بيوت الأرياف عنْد موْسم الحصاد، وعلى كلّ بيْت أن يمنحه قدرا معيّنا من الحبوب، قمْح أو شعير، حتى لا يهلك بقيّة الزّرع بسبب عاصفة رعدية محيقة وماحقة، فهو شفيع البرْق والرّعد، تحول بركته بين العاصفة والزّرْع، لذلك يخشى الفلاحون لعنته، ويتبرّعون له بمقادير من غلّتهم حتى لا يطال زرْعهم الأذى... حدث أن مرّ بمنزل أبي ولم يكن موجودا، فطلبتْ منه أمّي أن يعاود الرّجوع حتى يأخذ نصيبه من ربّ البيت. الغريبُ أنّ تلك الليلة داهم الجبل والوادي رعْد مشفوع بسياط بروق شيطانيّة، أفسدتْ زرْع الأب والأفدح شهدت موْت الفرس البيْضاء. هناك من أرجأ الموت لسوط البرْق، وهناك من فسّر الأمر بلعنة سيّد الرّعد "بوثجناو" وهناك من رجّح منطق المصادفة لا غير. أمّي تقول بتوجّس محتدم: لو كانت مجرّد مصادفة، فلماذا فسد زرْعنا، دون زرْع الدّسكرة في الوادي؟!؟

تفتحُ الهنديّة الحمْراء عينيْها الدّعجاوين، عيْنان طالما وصفتهُما أمّها "ميسان" بعينيْ مهْر أو عجْل، تبتسمُ بحزْن وترْدفُ:

– إنّه وداي المئويّين... سكّانه يعيشون فوْق المائة سنة في الغالب، ولا ينفق تحْت هذه النّسبة منهم إلا ما ندر... أوْ أولئك الذين ألمّت بهم حوداثُ قتْل مثلا...

– سمعتُ بوجود نفس الوادي، ربّما في أمريكا اللاتينية أو روسيا.

قال لها لوكيوس متدخّلا بشكل طفيف. استساغتْ تعليقه وقالتْ:

– ثمّة تطابقٌ سديميّ بيْن أمكنة، هو خيْطٌ لاحمٌ بيْن أكْثر منْ بلد لعين.

عندما لفظ لسانُها اللاّثغ كلمةَ سديم... كأنّما طوّحت بذهْن لوكيوس في دوّامة ضبابيّة، وما عاد يتذكّر التفاصيل المنْهوبة، المتلاطمة كأمْواج عاتية، أو المتلامعة كغابة برُوق... فكان يغْطسُ حينا في نهْر يُهسْهسُ بداخله، وحينا يرْفع رأسه فوق صفْحة المياه، ليجدها مستأنفة طرْز الحكايات بخيط هذيان أزرق...

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أغوتها خيالات الذّهاب فيما وراء سيّد الرّعود وهو يتقدّم قافلة بغال مملوءة حمولاتها بالزّرع الذي يبتزّه من الدّساكر... كيف هو مسكنهُ المرْعب؟ أليست الجهة التي يؤوب إليها هي الجهة التي تنام فيها العواصف، البروق والرّعود؟ وأين يخفي كل تلك الحمولة من الحبوب؟ هل يسلّمها لوحش سماويّ مثلا؟

تلك كانت خيالات طفولتها الحمقاء... الشيء الذي اتضح فيما بعد هو السّبب الجليل الذي كان وراء مجافاة أبيها "بيسان" لسيّد الرعود "بوثجناوْ"، لم يكنْ طعنا في شعبذة حرفته وما يزعمه من كرامة البرْق والرّعد كشفيع، بل ثمّة ما هو خفيّ، حدَسهُ الأبُ أو استشعره، فالرّجل تأكّد أنهُ مغرمٌ بأمّها "ميسان" فيما بعد، تجاسر وطلب يد الأمّ "ميسان" بعد وفاة أبيها "بيسان" و"أريانا" آنئذ بسنّ العاشرة.

جنّ جنونُ خالها الوحيد "داوود"، الذي هدر دم سيّد الرّعود، وتوعّده بشرّ ميْتة. المفارقة أنّ سيّد الرّعود "بوثجناو"، مات ميْتة كاريكاتوريّة، لم يكنْ الخال داوود وراء الأمر كما فزعتْ أوّل الأمر حين سمعتْ الخبر وأمّها، بلْ كان البرْق نفسه... أجلْ مات بسبب صعْقة برْقٍ، شوهد وهو يسقط عن بغلته في منْحدرٍ، وقد أحْرق البرْقُ جلبابهُ.

قيل أنّه شوهد بُعيْد الخروج من دار "المرأة ذات الوشوم" الملقّبة بعروس النّهر...

داوود كان صاحب صوْت ساحر، غناؤه يشنّف الآذان طربا، وكان على علاقة موشومة ومحتدمة مع المرأة ذات الوشوم "عروس النّهر". هي بدوْرها تمتلكُ صوتا طروبا للغناء، ومعا خلدا في ليل البلدة، كأبْدع من يستقيم عود السّمر بهما، ولا يلتذّ السّهر إلا بوجودهما...

3
عروس النّـهر

أوّل مرّة ستكتشف "يامنة" بأنّ لعروس النّهر وشوما أيضا على جسدها غير وشوم وجهها وعنقها، كان عندما صادفتها عارية في النّهر. وشوم غائرةٌ في بطْنها وعانتها وردفها وأعْلى مؤخّرتها. امرأة ذات شعر غفير وطويل. كانتْ على غير عادة نسوة الخلاء، تدخّن وتتزيّن لرجل سكّير. رجلٌ من أجلاف بلْدة بعيدة يأتي على درّاجة ناريّة من نوع (star). بشارب أشْعث. يحملها على متْن الدرّاجة النّارية ويذهبُ بها بعيدا فيما وراء الجبل السّامق. جبل القيّامة.

لماذا تلك المرأة دون نسْوة المكان تزوّق جسدها بوشوم؟؟؟

تساءلتْ، ولم تجدْ جوابا. أغْلب النسوة يضعْن وشوما في وجوههنّ فقطْ. مثل أمّها وأختها البكْر. لم تكنْ تنظر إليْها نظرة شائنةً كوْنها مختلفة ومارقة. تدخّن وتشْرب وتمارس الجنْس مع رجال غرباء. لقد كانتْ مصْدر ريبة بالنسبة إليها. مصدر استفزاز وغواية باستمرار.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

لقد سمعتْ مصادفة فيما بعد، منْ امرأة تغسلُ القمْح في النّهر أنّ المرْأة ذات الوشوم كانتْ أيضا حبّ أبيها الأوّل قبْل أن يتزوّج من أمّها "ميسان" وهذا ما عزّز من رصيد الدّهشة. الدّهشة التي تنتابها كلّما لمحت المرأة الموشومة أو ذُكر إسْمها. فهي عاشتْ بعيدا عن المكان حينما تزوّجها رجلٌ يعمل في البريد، واختفى أثرها عشْر سنوات لتظهر من جديد بعْد أن مات زوْجُها في حادثة غامضة. رجعتْ إلى بيْت أمّها المهْجور لتسكنه وحْدها.

بيتٌ هادرٌ بالموسيقى لا تخرْسُ فيه الآلات إلا إذا أصابَ المسجّلة عطبٌ. سرْعان ما تصْلح العطب ليعاود البيْت صخبُ الموسيقى. كأنها تفخّخ عزْلتها بالموسيقى وتلوذ بالأغاني كذرْع تحتمي به من النّظرات التي تسْلخ وجودها غيْر المرغوب في المكان. نكاية بكلّ منْ يحاربُها تلحّ أن تنْبت في ترْبة المكان كأرْزة سامقة. المرأة الملداء تمتلك صوتا غنائيّا مريبا. اكتشفتْه في عرْس واتضح للهندية الحمراء "يامنة" أنّ كثيرا من الشرائط الموسيقية في بيتها من أدائها. إذْ تسجّل في تلك الآلة الغريبة ذات الصّنع الياباني. "صانيو sanyo" إسم علامة المسجّلة التي كان يأتي بها مجنّدو الخلاء من الجنوب. طبْعا أب المرأة الموشومة كان جنديّا مجهول المصير.

المرأةُ الموشومةُ كانتْ تحبّ التبوّل تحْت زهْر الدّفلى. هل لأنّ الزّهر يفتح لها أفقا لغياب لذيذ؟؟؟ أمْ له لون متواطئ مع حمرة فرجها غير العاديّة؟!؟ أجلْ، رأتْ "يامنة" حمْرته الجورية خلْسة وهي تشاركها التبوّل ذات ظهيرة عندما كانتْ تحْكي لها المرْأة الموشومة عن ليْل المدينة.

لاحظتْ أنّ دفْء الحديث لحظة التبوّل لا يضاهيه دفْءُ لحظات أخرى عند النّساء. الأمر نفسه جرّبته مع أخواتها وأمّها وصديقاتها... يستفضْن في الجلوس بذلك الوضْع المقرْفص وإنْ أفرغْن مثانتهنّ بالكامل وهنّ يتوغلنّ في المكاشفة.

منذ رأت الحمْرة الوردية لفرْج المرأة الموشومة، ارتدّت عن التبوّل تحْت السّدرة وصارتْ تتبوّل بدورها تحْت زهْر الدّفلى. ربّما لأنّها رغبتْ بأنْ يصير فرْجها أحمر بلون زهْرها الجوريّ بدل اللون الخرنوبي الذي يخضّل جرْحها الصّغير. قد يكون للتبوّل تحت السّدرة أثرٌ في تلوّن جرْحها بلوْن النّبق. اللون القهوائيّ الفاقع. الكسْتنائيّ الزنجيّ. البنّي الأسْمرُ.

4
سبْع حبّات نبق

تذْكر آخر مرّة تبوّلت فيها تحت سدْرة، سبْعُ حبّات نبقٍ كانتْ تعرّش السّدرة على سفح الجبل السّامق. كراكي أعزل تخلّف عن سرْبه حلّ فجأة في المكان. قطعةٌ سوداء من ثوْب نسائيّ عالقة في أحد العساليج، كأنّها قدّت من بيرق الشيطان. بعْر تيوس يتقعّر دغْلها الشائك. فمٌ مقراج مهترئ يتجشّم بطْش النّسيان على الشّمال. حصى أبيض بشكل حليبي يلْمع في شقوق الأرضيّة الصّخرية ذات اللون الرّصاصي. رفعت الهندية الحمراء مرْط فستانها بعد أن التفتتْ في الجهات واطمأنّت

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مثل قطّة إلى فراغ المكان. أنزلتْ تبّانها حدّ الرّكبتين مقرْفصة. أوْلتْ ظهرها للجبل الشاهق ويمّمتْ بنظرتها شطْر النّهر. أدلقتْ خيط بولها الشّائن، تشوبه حمرةُ الشّاي الذي تدمن رشْفهُ. سُمع لأثر انسكابه هسيسٌ وثيرٌ وهو يثقب أديم التّراب كما لو كان برغيّا. خيْطُ مياهها مسنونٌ كما لو كان مفتولا من أسْلاك البرْق. هسيسٌ يلْغي هدير النّهر ونعيق بومة المستنقعات الإفريقية. يلْغي شحاج العقاعق وسقسقة عصفور الشّوك الصنوبري ورطانات الوقواق الصّقري الهندي والطيطوي مقوّس المنقار والبقويقة سوداء الذيل... عيْنها ترْسو على فم المقراج تارة. ثمّة انتشاء مريب يعضّ على فرْجها كلّما انزلقتْ نظرتها إلى فم المقراج وهي تتبوّل تحْت السّدرة. ثمّ سرْعان ما يتبدّد الانتشاء المشبوه. سدّدت نظرتها أبعد ما يكون وارتقتْ سلالم الخلاء المترامي خلْف النّهر. ما أن يمتلئ الخرْم الذي أحدثه سلْك بولها في التراب، يفيض عن الثّقب ويشقّ مسارا على الأرضيّة الشّاقوليّة زاحفا مثل أفعى صوب ساقية آسنة في الأسفل. الساقية تعلتي التلة الصّغيرة المطلّة على النّهر وماؤها مصْدره هو النّهر نفسه. فالمنْعرج المقوّس لاستدارته الأفعوانيّة في ذلك المنْحنى جعل منْه بدْو الضفاف شقّا لجداول متفرّعة تصل رحم حقولهم وأحواضهم، زيتون وفجل وسلجم وفول وسفرجل ورمان وثوم وبصل وجزر وباذنجان وطماطم وبطاطس وكرز وتفّاح...الخ

لحْظة يزْحف بوْلها يتخضّب برفات الشّعير ووريْقات السّدرة وأعواد التّبن والنّمل الأحمر وجثّة خنْفساء نافقة وساق جندب مسنونة وبعْرة كبش وريشة صرّد أو ذعرة أو قرلّى، فيما يخطئ مروق عنكبوت مرقّش بيْن حجر صقيل مضرج بدم قبرة وبين حشيشة الهرّ. تتحاشاه انطلاقةٌ بكْر ليربوع بين جحرين رصاصيين متقابلين يطلّ من سفح أحدهما على اليمين نبات الرغل ومن سفح الثاني على الشمال ينقشع نبات الحلتيت. يخطئ أيضا ثقب النّمل الأسود الذي لا تعمى بصيرته عنه إلا لماما. أما الغريب فأنْ يتطاير يعسوبٌ بشكل خفيض على مجْرى بوْلها، كأنه يتلذّذ بعسل خفيّ يتبخّر من المياه الداكنة ويصاحبُ باحتفال المجْرى حتى مصبّه الجامح في الساقية الرّاكدة المزمخرّة بالنيلوفر والضفادع الصغيرة المتقافزة فوق النبات اللزج المخضوضر الذي يلبس الحجر. ما أن تنهي إفراغ مثانتها وترفع تبّانها بسرْعة، فيخضلّ بنسْغ قطرات. تسدل مرْط فستانها وهي تعاود الالتفات في الجهات خشية أنْ ترْصدها عين جحراء. لحظتئذ تسقط حبّة نبق من السّدرة. تتدحرجُ على الأرْض الصّلدة. تتوقف عند حاشية صنْدالها الأزْرق. صندالٌ يضيقُ بقدمها الهرقليّة. فينجمُ عنْ تفرّع أصابعها الطويلة المنتشرة في الجهات نتوءٌ رفيعٌ في ضلفته ويبدأ تقطّع غير محمود في الإزدهار في الثنية، يقضّ مضْجع النّظرة المطمئنّة إلى الزّهرة الغريبة على صدْر الصّندال (تشبه زهرة الحواشي المرجية). زهرةٌ لا وجود لها في قاموس ربيع تلك البراري. ربّما موجودة فقطْ في خيال صانعها، ولذلك تبدو ذات قيمة. مستفزّة للناظرين. النّاظرات بالأحرى. خاصّة عندما يحطّ الصّندال زائرا فوق عتبة باب. أبواب المنازل الشّاردة المجاورة وأكثر في أبواب الأعْراس، حيث يتجشّم الصنْدال صهْد الرؤى. فتتقلّبه عيون المسنّات فيما الصبيات يلهجْن بالأغاني والرّقص.

غالبا ما لا تنتبه إلى حبّة النّبق المتساقطة عقب تبوّلها فهي ملتبسة المشاعر، وحتى إن انتهبت لذلك، فيقينها دامغٌ من أنّ الرياح الطفيفة التي ترتطم بالسّدرة وراء سقوط تلك الحبّات، أو الأمر راجع لشيْخوخة العود الرّطب الذي يشدّها، وهذا يعني نضْجها الأكيد. انفلاتها من القطاف يجعلها ذات استقلاليّة، حرّة وذات كبرياء. فالفرق شاسع ومهول بين أن تقضمها شفاه معزاة وهي قيْد

مادة محمية بموجب حقوق النشر

العسْلوج في السّدرة وبين أن تلتقطها معفرّة بالتراب أو منتفخة في مياه السّاقية الرّاكدة.

هل يعقلُ أنْ يكون لخيْط بوْلها كل هذا السّلطان؟

كيف يمْكن لصدى خيْطِ بوْلها الدّاكن أن يحْدِث هذا الأثر؟ أثر سقوط حبّة نبق من السّدرة!!! ففي اللحظة التي تدْلقُ آخر قطْرة وتسقط القطْرة خثْراء. لامعة تحت شمْس الظّهيرة. مزْدهرة بألوان شتّى يعْكسها زمنُ انثيالها من فوْق إلى أسفل. يعْقب ذلك، وقوفها، بعيْد رفْع التبّان وإسدال الفسْتان، السقوط المغتبط للحبّة. بداية يقشعرّ العود الرّفيعُ الذي يشدّ الحبّة بوجل ووهن. تزْهر رعشة احتضار ما في خضْرته الفاقعة، فينسلخ عن العسْلوج ويتيحُ لثقل الحبّة أنْ تهْوي. تهْوي الحبّة منْفطرة. قدْ تصْطدم بالإبر الشائكة التي تشهرها الغصونُ المتواشجةُ. فتغيّر مسار اتجاهها. قدْ يصادفُ سقوط الحبّة مروق فراشة على أهبة أنْ يتصادما. الزّمن الذي تسْتغرقهُ السّقطة المظفّرة لحبّة النّبق، هو الزّمن الذي تستغرقهُ فكرةٌ تهاجسُ الفتاة وهي تقفُ بعد أن تعيد وضْع التبّان إلى مكانه وترْخي مرْط الثّوب على ركبتيها.

أحيانا لا يتعلّق الأمْر بفكرة. بل إحساس وربّما رغْبة.

يحْدثُ أن تنْحني من جديد وتلتقط حبّة النّبق. تمسحُ الغبار الذي يلفّع كستناء قشْرتها وتلتبسُ عليْها الرّائحة. أهي رائحةُ بوْلها المتخثّر في أصبعها جرّاء حركة طائشة لم تستشعرها. أمْ هي رائحة أنفاس تيْسٍ دبغتْ الحبّة ونقعتْها؟ يحدثُ أن تقضم الحبّة وتلتذّ بطعْمها الغريب، فثمّة نسْغ عسل، وثمّة مرارةٌ أيْضا يستسيغها لسانُها. غير أنّ رائحة البول أو أنفاس التيْس تعاودُ التشويش على مذاق الحبّة دون أن يفْسده طبْعا. فغالبا ما يتلفّف لسانُها كلّ الحبّة وينهمكُ في امتصاصها طويلا، مخدّرا بعسل مرّ، وأحيانا تكْتفي بقضْم خدّها (خدّ الحبّة طبْعا) وتترك لها خدّها الآخر. ثمّ تلقي بها إلى الساقية كي تعزّز إرث الأشياء العالقة في المياه الآسنة.

لحْظة انحنائها لتلتقط الحبّة. يحْدثُ أن ترنو إلى ساقيْها، فتكتشفُ نقْع بلل على الجلْد. آثار قطرات انفصلتْ عن خيْط البول اختارتْ أن تعفّر لحْمها. كيف انفصلتْ وقد كان الخيْطُ كتلةً واحدةً متناغمة ومفتولة كسلْكٍ مضفور. الأمْرُ يجد تفسيره المنطقي في شيْئين لا ثالث لهما. إما أنّها سمعتْ صوْتا والتفتتْ مخافة أن يداهما ذكرٌ ويكتشف طفْس بوْلها (كأنْ يدْركها المهْر "أملال" الذي صار حصانا) فتغيّر اتجاه مياهها المندلقة كيفما اتفق وأصاب ساقها. أو اصطدم خيط مياهها بحجر أو قطعة معدنيّة، صفيحة نحاسيّة مثلا لسطْل مطْمور. فتشظّت ضفيرة البوْل الرّفيعة في ارتدادها الطائش وأصابت عضلة ساقها. بمرْط فستانها تمْسح على البلل المنقوع. تبرقُ صورةٌ طائشةٌ في ذهْنها عندما كانتْ وفتيات من سنّها يحاولن التبوّل وقوفا على ضفّة النّهر. ليْس تشبّها بالذكور وإنما نكاية بأنوثتهنّ التي شاءت الطبيعة أن تقولبهنّ على مقاس ذلك الشّكل. أن يقعين أو يقرفصْن وهنّ يفعلن. فيندلقُ الماءُ مشوّشا. شرْشرةٌ ينزل وهو يغسلُ الفخدين والسّاقين. ينفجرْن ضحكا قبل أن يغتلْسن في النّهر.

وهي تلتقط حبّة النّبق. تنتابها رعشة مريبة. تلْك الرّعشة التي تغتورها كلّما زاغ خيالها إذ تتذكّر وترْسمُ ابتسامة طفيفة. تتذكّر ما شاهدته ذات ظهيرة في الوادي. خلف شجرة دفلى دائما. حين كانت شاردة تبحث عن سلحفاة. كي تبيعها لفرنسية تدعى "كارولين"، حلّت ضيفة على المكان بغرض عمل بحث حول السلاحف البرية. فرأت الرّاعي الأثعل مع الفتاة فلجاء الأسنان

مادة محمية بموجب حقوق النشر

"خُجْمة" من الضفة الأخرى بوضْع ماجن. كانت تجلس على أرْبع ومؤخرّتها الضّخمة مكشوفةٌ تماما، فيما يدُ الرّاعي تفحص شقّها الرّفيع. استلقت الهندية الحمراء على بطنها مشدوهة. أطلّت بوجهها خلْف الدفلى واسترقت النظر إلى ما يفعلانه. طبعا الأمرُ لا يحتاج إلى تأويل. فالرّاعي يضاجعُ الفتاة. لكنْ لمْ يخطرْ على بالها أن تكون المضاجعةُ بذلك الشّكل الغريب. فالفتاة الفلجاء تعرّي عن مؤخرتها فقطْ والرّاعي يبدو كما لوْ يفحصُ عجيزتها لا غيْر. استغرق المشهد دقائق معدودة عندما سمعا صوت نداء بعيد. كان صوْتا يردّد إسم الفتاة ذات المؤخّرة المكشوفة تحْت شمْس الظهيرة "خُجْمة". فسارعتْ إلى النّهوض وارتداء سروالها والتجاوب مع صدى النّداء المتردّد في الأصْقاع. ستلتقي الهندية الحمراء الفتاة "خُجْمة" ذات ظهيرة في بزْكة النّهر. كانت تغسل الثّوب مبتهجة بفقاعات الصابون حين شرعتْ فتاة الضفّة الأخرى في الكشْف عن تجاربها الجنسيّة ودون أن تسألها باحثْ لها بأنّ من تواعده من الذكور يمتلك رغبات مجنونة، وحين سألتها كيف؟ أخبرتها كيف يكشف عن مؤخّرتها ويتلذّذ بإدخال أشياء في إستها. أشياء مثل ماذا؟ استطردتْ في السؤال. حبّات النّبق مثلا!!!.

تلك الفتاة الحمْقاء "خُجمة" راهنتها بأنّها أوّل من سيتزوّج من الصبايا في وادي المئويين وسيطلب ودّها أكثر من ذكر. كيف ذلك؟ كشفتْ لها بأنّها تتبع وصايا خالتها في قضّ مضاجع الرّجال. في استوقاد غلماتهم وإضرام النار في خُصاهم، ولن تدّخر سرّا من أسرار معرفتها الباذخة. فنصحتها مثلا بأن تبحث عن جلباب أفعى. أي القشرة التي يتخلّص منها عندما يجدّد جِلده، وتحكّها إلى فرْجها. فهذا سيجْعل كلّ غراميل الرّجال تحلم بجُحْرها دون جُحور النّساء قاطبة.

طالما وقفت الهندية الحمراء على قشْرة أفعى وتردّدتْ في أن تفعل وتساءلتْ هلْ هي تحلم بأن تضْرم رغبات الذّكور فيها فعلا، أمْ الأمر مجرّد فضول لمعرفة تحقّق الشيء. تلقفتْ قشرة الثعبان ذات منتصف ظهيرة وهي تتبوّل تحت السّدْرة. لم يكنْ يهاجسها أن تفعل من أجْل شدّ انتباه أيور العالم إليها. أرادتْ أن تفعل فقط من أجْل أن تسترعي انتباه شابّ واحد لا غيْر. شابّ رمقته مرّة واحدة فقط. زار المكان مرّة يتيمة. كان من قبيلة مجاورةٍ وهو يعيش في أمريكا. إسم مدينته "نيويورك" همْهمته الرّياح في مخيّلتها وتمنّتْ لو تكتشفُ هذه المدينة. هل كانتْ ترغبُ في الشابّ أم في المدينة؟ الأمر سيّان. حكّت فرْجها بقشْرة الثعبان وارتعشتْ باحتدام. ثمّة نارٌ ازدهرتْ في جرْحها. ذكرتها ضراوةُ الدّفء المندلع في خرْم حوْضها بطعْم نار الأعراس. ليستْ نار الطّهي. بل النّار التي يشْعلها النّاقرون على البنادير من أجل تسخين الدّفوف. البنادير المصنوعة من جلْد الماعز. محكومة بخيوط تُقطع أو تُنتف من ذيول الأحصنة كي تحدث الرنين الغاوي في الآلة. كانتْ وهي طفلة تقرْفص أمام نيرانهم في ظلمة الليل الكاسِحة. تتأمّل وجوههمْ المتألّقة في انعكاسِ الضّوْء. وجوهٌ شرهة، صارمة، صلدة، قاسية ومريبة. كانت عيونهمْ المترعة بالرّغبة والمخاطرة والنّزوة تشعّ بحمْرة القذى تشبه إلى حدّ بعيد حمْرة شعلات الحباحب. يتداولون على النّار بلهْفة مسعورة أسماء وأجساد الإناث اللواتي سيؤثّثن دائرة الرّقصة، ولا يجدْن حرجا في النّبس بكلمات بذيئة ويترافثون عندما يتعلّق الأمر بالحديث عن مؤخّرات النسوة وحين ينتبهون لوجود طفلة معهم يزجرونها ويطردونها منْ محفل النّار. تلك النّار التي كانتْ تدفّئ فرْجها الصّغير وهي مقرفصةٌ ببراءة حوْلها تسكتشف وجوه الذّكور من قبيلتها أو قبائل أخرى. ما يزال فرْجها يحتفظ بأثر تلك النّار. النار التي تعتورها رائحة التّبن المحروق والإذخر والحوذان والدبق الأبيض. مشوبة بعطانة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

رؤث حمار أو حصان. رائحتها لا تقاوم عندما تختلط النار باحتراق مادة بلاستيكيّة كصنْدالها الغجري. مصيرُ الصّندال البلاستيكي الأخير. حيث يسْعف في استشراء اللهب الأزرق ونادرا ما يصلح لمآرب أخرى عند اهترائه. كأنْ يلْحم خرْم سطل أو ثلمة باب خشبي أو يصنع منه الأطفال عجلات لشاحنات يبتكرونها من أسلاك تلفّف مصطبات التبن. ستحتفظ بالزّهرة الغريبة إن اهترأ الصّندال تخمّن. تذكّرها بزهرات الصّحون التي يأكلون فيها المرق. لا يمكن أن تنْسى الصّحن الغريب الذي أهدته لهم عمّتها ذات صيْف وفيه رسمٌ ضبابيّ. أوّل مرّة سيأكلون فيه مع أبيهم "بيسان" وكنّ سبْع بنات، سيصطدمون بأمر مخجل جعل الأب ينتفض ويرْفع الصّحن ويرطمه بالجدار ويتشظّى. كانتْ تلك أوّل مرّة ينكشف فيها الرّسم. بعد أن أتوا على الخضروات من البطاطس والجزر والفلفل واللحم وجفّت آخر بقعة مرق ولاح رجل عار وامرأة عارية تحت شجرة. آدم وحواء في قعر الصّحن. تراجعت الأخوات للخلف مضرّجات خجلا، وهكذا تهشّم أوّل صحْن مصنوع من خزف راق، غيْر الصّحون التي من قصْدير ونحاس وطين. ذلك الصّحن الذي رأتْ أشباها له تؤثث دولاب المرأة ذات الوشوم "عروس النهر" في المنزل الأعزل على التلة، اللصيق بضفّة النّهر. صحونٌ لا يضاهيها غواية أكثر من مجلدات عشرة لكتاب غريب ينتصب مجاورا لها في رفّ الدولاب الأوْسط.

ما لنْ تنساهُ الهندية الحمْراء أبدا، بعْد لحظة ولادتها الموشومة على الثلج في سفح جبل القيامة، هو تلك المرّة الأولى التي ارتدّت فيها عن التبوّل تحْت السّدرة، وجرّبت غواية التبوّل تحْت شجرة "عروس النّهر" الأثيرة (هل تخيلتْ مروق سرب تدْرج فوقها آنئذ؟). ما أنْ شرعتْ في التبوّل تحْت زهْر الدّفلى حتّى أمسكتْ بها يدٌ فظّة من ردن فستانها، خلْف عُنقها، كانتْ لخالها الوحيد "داوود" الذي ذهب بها توّا وسجّلها في المدرسة التي تبْعدُ بعشْرة كيلومترات عن بيْتها الأعْزل...

5
حجرٌ لخُروم الكيْنونة

ارْتعش لوكيوس في مكانه المحاصر على مقْعد الطّائرة، الكرسي رقم 7، أذْهله أنّ الهندية الحمراء، تحكي بحرية لائبة، وراقه جدّا أنّها تتحدّث عنْ أشيائها الخاصّة جدّا بلغة عارية، طفوليّة، لا شبْهة للإثارة أو الإغواء فيها...

اكتشف أنّه كان يغْمضُ عيْنيه مرّات وهو ينْصتُ لهذر لسانها الأفعواني... خشي أن يكون موهوما فيما سمعه أو يهيّأ له أنْ سمعه بالأحرى من سيرتها الجليلة.

هل يعقلُ أن يكون ما سمعه حتى الآن، محض هلوسة مندلعة من منطقة لعينة في داخله، من أقصى سديم خياله أو رأسه بالأحرى؟؟؟

الشيء الذي كان يرتعش له جسده بشدّة هو حين تلفظ الهندية الحمراء كلمة "النّهر". كأنما

مادة محمية بموجب حقوق النشر

صعقة كهرباء تلمّ به. فيتساءل بحماس لائب: أيّ نهر لعين هذا يا أريانا؟ لماذا تمكرين بي ولا تذكرين إسمه؟؟؟

التفت من جديد، وأغمض عيْنيه وهو يلاحقُ خيْط حكْيها المتقد، والمنفلت في آن...

تلك السّلحفاة التي خرجتْ ظهيرة لتنبش عنْها في الشّعاب، بين الأحْجار الصّلدة، في الأعشاب الشّائكة، لكيْ تغْبط بها وجه الفرنسيّة "كارولين"، لم تكنْ تتوقع أن أستاذة علم الأحياء هذه كانت تحتاجها لمآرب أخرى، غير تدوين أنواعها ودراسة خصوصيتها. فقد رمقتْها مصادفة مع خلوّ النّهر ذات ظهيرة عارية وهي تقرْفص على السّلحفاة، تلامسُ بفرْجها قوقعتها وتحتكّ بها مندلعة بأنفاس حرّى.

أوّل مرّة تشاهد كيف تقضي فرنسيّة وطرها برغبة مجنونة كتلك. استقرّ بعدئذ في مخيّلتها حوضها الأبيضُ، حليق العانة، غير عانات نساء وادي المئويين الشعْثاء. ليستْ تلك هي المرّة الأولى التي ترى فيها فرْجا حليقا، فقد سبق ولمحتْ ذلك عند المرأة ذات الوشوم "عروس النّهر". المرأة الوحيدة التي تتجاسر على الاستحمام في النّهر عارية يوم خلوّ المكان من الآدميين. الذّكور بالذّات. تخلعُ فستانها الممهور بالطواويس وتكشف عن صدْر ممتلئ، يحتفظ باستدارته اللدنة، نافر الحلمتين، بطن صقيلة ومؤخّرة بضّة، ذات يلق، تجافي ارتداء التبابين، تغْطس في النّهر ويزبد الماءُ في الحين.

حين تخرج إلى الضفة، مبللة، بشعر يتدلى حتى المؤخرة، تنحني لتجفف القطرات المنسكبة على ساقيها المترفين عند الرّبلتين، ولا تجد حرجا في الكشف عن عجيزتها المترفة، فتظهر حمرة طفيفة عند شرْجها، عكْس السواد الذي لمحتْهُ الهنديةُ الحمراء في أغلب خروم البنات والنّساء. طبْعا الأمر راجع إلى الحصى الذي يمسحن به ثلماتهن بعد الانتهاء من التبرّز في الخلاء. حجرٌ ساخنٌ كما لو لفظه بركانٌ في الظهائر الجحيميّة، تمرّره الأصابع بسرْعة على الخرم فينكمش، ويحْدث أن يكون الحجرُ خشنا فيكاد يجْرح الثلمة وينجم عن ذلك أثر لخطوط وبثور. نادرا ما كنّ يغتسلن بالماء، وأمّا الورق فلا يلجأن لكاغد تلفّف به قوالب السكّر إلا لماما. ألفتْ شروجهنّ صلابة الحجر كيفما بدا خشنا، وأما الورق وقطع الثوب العالقة بالصخور والنباتات فلا تفي بالغرض دائما... حجر مضرّج بدم القبرات أو القطاة أو السمانى. حجرٌ معدنيّ أزْرق، مشوب ببياض في حواشيه. حجرٌ قهوائيّ، لدنُ الملْمس. حجرٌ أسود، حادّ الرؤوس. حجرٌ مثخن بطينِ الحرْث. حجرٌ أمهقٌ، بأشكال هندسيّة متباينة، ثلاثيّ السّطوح أو خماسيّ. حجرٌ رماديّ، هشّ، منذور للتفتت. حجرٌ مخروطيّ مستطيل يشبه سكاكين ومدى. حجرٌ بيضاويّ بمختلف الألوان يتراكم في قعْر الأخدود اليابس...

حجرٌ قائظ في الصّائفة، يكوي الأصابع قبل أن تمرّره الأنامل كما لو تمرّر صعقة كهرباء. حجرٌ صاقع البرودة شتاء، تتخشّب له الأصابع كأنما أمسكتْ بقطعة جليد.

حجرٌ مكدّس في قعْر ذاكرتها، يلمع في قاع نهْر يقبع بداخلها.

حنّ لوكيوس بقوّة إلى تدْخين سيجارة. قاوم الرّغبة بمشقة فادحة. ابتسم بلذوعية لصورة مارقة رسمتها الهندية الحمراء بحديثها الجَسُور عن الحجر: حجرٌ لخروم الكينونة واللغة والمعنى...

مادة محمية بموجب حقوق النشر

6
آنسة sanyo، داوود وبيسان

عزْلة المرْأة ذات الوشوم طوّقتها بسديم منْ الرّهبة. حتى أنّ الأطفال باتوا يخشوْنها كما لو كانتْ ساحرة. يتخيّلونها امرأة مقبرة. امرأة من عالم الموتى. مع أنّها تجْزل في توزيع الهدايا عليهم. حلْوى ونقود وعرائس. أغلب الأطفال كان يتحاشى الهديّة ويرْفضها. بتوصيّة من الآباء. لم يثمرْ زواجها أبناء ليطردوا وحشة انفرادها. وحيدة في منْزل على السّفح. يحفّه نبات الصبار الذي يسوّر بستانا صغيرا للخوخ والرمان والمشمش والتين والتفاح والنّعناع. البستان الذي يستأثر بغواية العصافير والطيور، ولا يخلو من ترف أشكالها إلا لماما، الشقرّاق والزاغ والعوسق والدخلل والسودق وهازجة النّهر وخاطف الذباب الأزرق والنُّهس والتمير اللامع والنعار أحمر الجبهة وديك الغاب وسبد الجبال وسمامة الصرود والسُّقدة والشاهين والقطقاط الذهبي والبومة القرْناء والشنقب المنعزل...الخ

لا أحد يستطيع الجزْم هلْ هي العاقر أم زوجها المتوفّي العقيم؟ كل امرأة لها زوْج تتطيّر من وجودها مخافة فقدان زوجها. ربما يتوجّسن في باطن سريرتهنّ من أن تسرق أزواجهنّ. فالمرأة دامغة الجمال. أوّل من تحرّش بها كان الرّاعي الأثعل الماجن، صاحب الفتاة "خُجْمة"، فلجاء الأسنان، ذات المؤخّرة المحشوة نبقا، وتصدّت لهُ بأقْذع ما يكونُ. لا يعلم أهْل الدّسكرة لم رفضتْ عروض الزواج التي تواترتْ عليها. لم تكنْ عروضا وفيرة طبعا. فحكاية موْت زوجها تخيّم برعْب على كلّ من يفتنه مرآها، مخافة أن يلقى نفس المصير الفادح. تفخّخ وحْشة وجودها بالغناء والرّقص. لا تتْعبُ من الاستحمام وارتداء أفخر الفساتين. كل يوْم بفستان جديد وكل طلْعة بمظهر ساحر. ترى لمنْ كانتْ تتزيّن هذه المرأة الغامضة؟؟ من كانتْ تستهدف بجمال أناقتها النّاهبة؟؟ ومن يكون الرّجل الفظّ صاحب الشّارب الأشْعث الذي يأتيها بين الحين والحين، ويحْملها في الدراجة النارية بعيدا؟؟؟

أسئلة محْتدمة ظلّت تتراقصُ وتشكُّ ذهْن الهندية الحمْراء "تكمارتْ". كانت الوحيدة من بيْن البنات التي تستطيع الاقتراب منها دون رهْبة. برغم التوبيخ الذي تحصدهُ من أمّها "ميسان". ظلّت ترْصدها عن بعد. ترْصدها كما لو كانتْ لغزا. كما لو كانتْ أفقا جديرا بالتفكير والمراقبة والتشويق. بلى، وجودها سحْرٌ يغمرُ المكان. حتّى أنّ الخلاء يبدو خلاء بالفعل وأشدّ وحْشة حين تغيبُ.

امرأة تتحصّن بغموضها. تهْرقُ ظلالها في الأمكنة ويقتفي أثرها صدى الوشْوشات. ترْعى إوزّها كما لو ترْعى أسرةً جليلة ومقدّسة.

كانت "تكمارتْ" أو الهندية الحمْراء تتوقّع في البدء أنّ علاقة ملتبسة قد جمعتْ المرأة الموشومة بخالها السكّير "داوود". أختها البكر من حكتْ لها بأنّ تجربة غنائية جمعتهما. طبعا خالُها الملقّب ب: داوود، يمتلك صوتا رخيما وهو ناقر بديع على آلة "البنْدير" التي تصاحب إيقاع العازفين على الكمان أو آلة "الوطار". طربا يشنّف آذان المحتشدين في الأعراس. لا يكتمل سحْر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الغناء إلا بحضور الصوت الزمردي المصاحب. صوت المرأة ذات الوشوم "عروس النّهر". ذاع صيْتُ داوود الذي أدْمن الغناء هواية في كل الأصقاع. لم يكنْ يرتضي القبول بمكافأة ماليّة على أدائه. يغنّي منْ أجْل الغناء ومكافأته هي استمتاع المتجمْهرين بصوْته الفاتك. كذلك المرأةُ ذاتُ الوشوم. كانت ميسورة الحال بالقدر الذي كانت تستغني عن تلك المكافآت المتواضعة على كل حال وكانت غبطتها الشاهقة هي أن ترحل بالغجر صوب المنافي الموحشة وراء صوتها القاتل. كان هذا قبل زواجها من رجل البريد. أجمل ما غنّته وداوود كان خارج الأعراس الرّسمية في الدساكر. في سمر ليال خاصة. جمعتهما وأكثر من عازف على مرّ عقد من الزمن. ثمة حبّ ضارٍ اندلع بين الصوتين الجامحين. طبعا المرأة الموشومة كانت بسن يفوعة، ما دون العشرين. كانت أصغر من صوتها بكثير ولم يكنْ يتأتّى لها السّهر هكذا بحريّة. تمرّدت على أهلها أشدّ ما يكون التمرّد، ودفعت ضريبة ذلك من أمّها وأقربائها على حدّ سواء. عقاب بالضرب المبرح والاعتقال والتكبيل بالحبال، دون جدوى. روح شيطانية كانت تسكنها، تجنح بها نحو المزيد من الاقتراف. حتى فرضت واقعا غير مألوف على أهلها واستحال عليهم ردْعها. لم يكنْ أمامهم من حلّ سوى أن يقتلوها. كيف يقتلونها وهي وحيدتهم. لم تكن وحيدة وحيدة لكن أغلب الذين ولدوا قبلها من إخوة لقوا حتفهم لأسباب متفرقة. غرق في النّهر. سقوط من صهوة بغل. رفسة حصان، وحمّى غريبة وهكذا دواليك. كانت الوحيدة إذن التي قهرت لعنة الموت النازلة على أسرتها كقدر لئيم. لم تدم تلك العلاقة الصاخبة بينها وبين داوود. داوود الذي كان أميرا لبنات ومراهقات الأرياف ولم يكن يزهد في مضاجعاتهنّ. أيْ نعم سبق ونام مع المرأة ذات الوشوم مرّات وكرّات. غيْر أنها توقفتْ عن حبّه وصدّته فجأة وانقطعتْ عنه. فجنّ جنونه. لم تمض إلا أيام حتى طبقتْ علاقتها بأب الهندية الحمراء الأفاق، الأب الملقب ب "بيسان" أي صاحب الخيول. كان بيسان يرتاد سهرهم الغنائي المثخن، من أشاوس الندماء، له شكيمة صلبة، وقوامه الجميل الصّلد كان الفيصل في أكثر من عراك موشوم أيضا. فارس بمواصفات نادرة، وهنا سحر غوايته التي لم تستطع المرأة ذات الوشوم مقاومتها. سقط صاحب الخيول في غرامها أيضا، فالأنثى رعبوبة وبضة وشاهقة الجمال. لم يكن يضاهيها حسنا من بنات جنسها أيّ واحدة. فهي مضرب المثل في النضارة. أضربتْ عن الغناء في الأعراس ورافقها أنيس الخيول في سهراتها الخاصة مع عازفين يندلقون من أصقاع نائية ليكون لهم شرف الغناء مع الساحرة. ما من عازف لم يكتو بنار حبّها. كانت أيقونتهمْ، وأيّ أغنية تؤديها يسجلونها في شرائط بمسجلة sanyo حتى يخلدوا الصوت الخرافي الذي تمتلكه، ويخلدوا محمدة سمرهم معها. لا شبع من صوتها الغريب، تظل تصبغ سواد الليالي بياضا بشدوها، ولا تكاد تنهض لتغادر حتى يلمّ بقلوب السّامرين الفجع. يركض بها صاحب الخيول، تركب خلفه أو أمامه على الحصان الأبيض ويعجّلان بغزوة بكر في قلب الليل ولا يؤوبان إلا فجرا. حاول داوود استردادها مرّات وكرّات واتضح له يقينا فقدانها الفاجع. أمسك عن المحاولة ذات ليلة حين تنازع مع صاحب الخيول الذي صرعه في عراك خمريّ تداوله غجر البقاع طويلا ومنذ تلك الحادثة لم يعد داوود يظهر في الأعراس وجلسات السّمر. غادر المكان فجأة واختفى أثره. استفحلت العلاقة بين صاحب الخيول والمرأة ذات الوشوم وطفقتْ تتناقلها الألسن كجمْرة عبر فراسخ اليوم. صباحا مع الشاي وقبل الظهيرة عند نهر الغسيل ومع مرق الغداء وقبل القيلولة، مع شاي المساء وقبل الصلوات الجماعية في المسجد الصغير وقبل النوم وهكذا دواليك. أمسى صغار المكان يتبارون حول تعقّب العاشقين المريبين والظفر بالتلصّص على مضاجعاتهما المتوحشة على ضفّة النّهر، على قمّة جبل القيامة، في أنقاض الزاوية الدالية، في أدغال الغابة، في أصْقاع

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الخلاء...

ثم صدَعَ خلافٌ تواشج العاشقين المريبيْن، عنْدما استأنفت المرأةُ ذات الوشوم غناءها الذي لم تستطعْ قطع الحبل عنه وعن سمره الغاوي. كانت تلك هي النعْرة التي نفختْ فيها رياح القطيعة بينهما، فالمرأة الموشومة حاولت أن تقاطع الغناء والسمر ولم تستطع إلى ذلك سبيلا، وصاحب الخيول وضع الأمر كشرط لاستمرار ألفتهما الغائرة. صفح عنها في المرة الأولى التي داهمها في سمر تصدح بحنجرتها المسنونة بعد أن وعدته ألا تعود إلى ذلك، والشيء نفسه، فعله في مرة ثانية عندما داهمها في سمر ثان بعد شهر، وفي المرة الثالثة بعد ثلاثة شهور قرّر أن يقطع الرّسن المفتول من ذهب الولع أو ولع الذهب. صدم بيسان الجميع بزواجه خلال أسبوع من فتاة حمراء قريبة لأمّه تدعى "ميسان"، ولم يطل زمن ردّ المرأة ذات الوشوم التي تزوّجت في نهاية ذلك الأسبوع من رجل البريد قريب أبيها مجهول المصير، وزُفت إليه وغادرتْ معه المكان صوب المدينة المجاورة...

7
ألف ليلة وليلة

بين إغماضة وأخرى، انتشل بريقُ نصْلِ الحكاية لوكيوس حوْل "عروس النّهر"، الأنثى ذات الوشوم، أغوتْهُ المرأةُ كما رسمتها مخيلة "أريانا"، وتكهربتْ أصابعه، كما لو كان يتلمس مناطق جسدها الباذخ. الولع الأفدح كامن في الرّغبة الجليلة، في أن يأخذ لها صورا... امرأة شرسة كهذه، يمكن أن تشكل دعامة لكتاب مصوّر أو إيحاء لمعرض خاص... ترنّمت أصابعه على ركبته، تأمل رفيف شفة الهندية الحمراء مغموسة في نبيذ طست الحكي، تتألق ندى جوريّا... وأصاخ السّمع بذهول...

ما لا يمكن أن تنْساه الهندية الحمراء، وما لا تجدُ له تفسيرا واضحا، الشيء الذي رسخ في ذاكرتها أقوى، رسوخ وشوم "عروس النهر"، وشيئها التناسلي المورّد الشبيه بزهرة الدفلى، هو تلك الكتب العشرة، المنتصبة في دولاب "عروس النّهر"، مرصوصة في الفراغ المركزي، تتوسّط صحون الطّاووس، والفناجين الفاخرة.

عجبا لم تكن المرأة ذات الوشوم تعرف القراءة، وتحتفظ بتلك المجلدات العشرة الغريبة والمثيرة. اصطحبتها معها فيما بعد إلى المدينة المجاورة حين ارتبطت برجل البريد. ثم عادت بها من جديد لتحرس أنقاض النسيان في الدولاب بالبيت الأعزل. بيْت التلة المطلّة على النّهر. دولاب صنعه أبوها بنفسه كما تزعم من سنديانة لفظها النّهر ذات صباح، وكانت له هندسة مثيرة. رسومه وألوانه تشبه لوحة بدائية.

كانت تلك المجلدات العشرة لكتاب "ألف ليلة وليلة".

مادة محمية بموجب حقوق النشر

من أين جاءتها "ألف ليلة وليلة"؟

"ألف ليلة وليلة" هو كتاب أبيها المفضل. الكتاب الذي لم يكنْ يملّ من قراءته وقد اشتراه قطعة قطعة وهو شاب، قبل أن يلتحق بالجنديّة. علاقته بألف ليلة وليلة نشأت لحظة غرامه بفتاة متعلمة من المدينة المجاورة. شقراء تنحدر من جبل القيامة. يقال أنّ "ألف ليلة وليلة" كانت المهْر الذي أحبّ أن يقدّمه لها. هي أيضا كانت مغرمة به. لكنها مغرمة بالقراءة أكثر. غير أن أهلها احتقروه وحالوا بينه وبين الزواج منها – وإن كان هو مفتض بكارتها – حين زوّجوها قسْرا من أحد أقربائها العجزة وهو مهاجر يقيم في فرنسا. فالتحق بالجندية كملاذ للنسيان لا غير. لم يرجع إلا مرات معدودة تزوج في أوّلها أمّ عروس النهر وتركها حبلى. مات الابن البكر والثاني والثالث والرابع ثم ولدت "عروس النهر". كانت خامستهم وخاتمتهم. لم يقدّر لأبيها أن يراها. كما لم يقدّر لها أن تراه. فتلك المرّة الخامسة لعودته، ذهب بعدها وعدّ مجهول المصير.

المجلدات العشرة بالنسبة إلى المرأة ذات الوشوم، هي جسد أبيها الذي لم يسبق لها أنْ رأته. كلّما حنّت إليه، تلمّست الكتب بارتعاش. كأنّها تتلمس وجْههُ أو جسده بالأحرى. ألف ليلة وليلة هي الذريعة التي قرّبت الهندية الحمراء من هذه المرأة المريبة. فعروس النّهر كانت تستدعيها كي تتلو عليها من حكايات ألف ليلة وليلة وإن كانت لا تفهم اللغة كليّا. سحْر ما كان يصل إليها من الكتاب، يفتح أقاليم مجهولة في داخلها. موسيقى غريبة كانت تكشف عن خرائط مبهمة في جسدها. فترقص أحيانا على وقع تلاوة الهندية الحمراء للكتاب.

استشعر لوكيوس منعطفا حادّا في اتجاه الحكاية مع ذكر كتاب "ألف ليلة وليلة". لم يقف عند الأمر كي يجهر بسؤال توضيحيّ. سؤالٌ قد يجعل سرعة الحكاية تتضاعف أو تسلك طريقا مختصرة صوب حتفها. لذا قرّر التواطؤ مع تموّجاتها، وهو على يقين بأنّ نسقا غفْلا سيرجع إلى أشياء ذكرها لسان الغجرية "أريانا"، ليستوفي حضورها الماكر في اللعبة. هكذا خمّن... واستبشر بزوغ ما سيفاجئه عند منعرجات موعودة...

8
رجل البريد

رجل البريد لم يكنْ يتردّد على الوادي إلاّ فيما ندر. لم يكنْ له حنينٌ دامغٌ للمكان وإنْ كان من مواليد وادي المئويين. رجل حوادث بامتياز كما هو موسوم أو موصوم بالأحرى. يقال أنّ أمّه لعنتْ زواجه الأوّل من امرأة رخيصة في المدينة، ومنذ زواجه المشبوه صار ضحيّة حوادث سيْر متعاقبة. الرّجل سيء الحظّ فيما يتعلق بحوادث غامضة تستهدف حياته. ما أن يلتئم جرح واحدة حتى تستهدفه ثانية وما أن يجبر كسر عظمه من الثانية حتى تتلقفه الثالثة. جسده خبر كل أنواع الكسور وأشكال الكدمات وضروب الجروح... حوادث سير كان ينجو منها بأعجوبة. سقوط أشياء

مادة محمية بموجب حقوق النشر

من سطوح المنازل على جمجمته. انزلاقه في حفر تزدهر بها المدينة. طعنات سكاكين شكّته عن سوء فهم. تسمم غذائي. أمراض بالجملة...الخ

طلّق المرأة الرّخيصة التي خانته مع أعزّ أصدقائه المشتغلين بالبريد. فشل في قتلهما معا وإن طعنهما بسكّين. ثمّ قرّر أن يتصالح مع أمّه ومكانها اللعين أي وادي المئويين. المكان الذي هجره وتعالى عليه، ورفض أن يقترن به وباسمه. لا لشيء سوى أنه عانى فيه أفدح أشكال اليتْم، وقاوم النظرات المريبة والكلام الجارح الذي استهدفه منذ طفولة بعيدة. فالرّجل ولدته أمّه مع شخْص عابر، مجهول. أمّه كانتْ تمارسُ الدعارة لزمن في مكان بعيد قبل أن ترجع لوادي المئويين. لم يتجشّم عناء البحث طويلا هذه المرّة ولم يكلّف نفسه مشقّة الاستفسار. قريبة لأمّه المتوفّاة أشارتْ له على المرأة ذات الوشوم فقصد دارها ذات عطلة. لم تتردّد أمّ "عروس النّهر" أيضا في تزويجها حتى تضع حدا لاقترافاتها المشينة التي هزّت سكينة الوادي. زواجها من رجل البريد لم يكن رد فعل على زواج بيسان من "ميسان" وحسب، بل لأن رجل البريد يكتب ويقرأ أيضا. أخيرا هناك رجل سيقرأ لها حكايات ألف ليلة وليلة التي بقيت كأثر مقدّس لها من أب تجهله، أب مجهول المصير.

رجل البريد نفسه لم يكن يتوقّع أنْ يقترن بامرأةٍ مفْرطةٍ في الجمال. فبمجّرد ما نزلتْ في بيْته بالمدينة المجاورة حتى صار مسكنه محطّ غواية للنظر. النظر إلى المرأة الأيقونة. السّاحرة الطّاعنة في البياض أمستْ حكاية غريبة تتلقفها الألسن. أصبحتْ خبرا مشتهى ينزلق في أحاديث المقاهي ويتشعّب في الأزقة ويستشري في كل المدينة الصغيرة. كما لو كانتْ أسطورة أو ربة جمال رومانية وهو الشيء المزعج الذي أثار حفيظة رجل البريد، فاشترط عليها الخروج معه فقط ومنعها من الخروج وحدها ولو لقضاء شيء منزليّ طارئ، وحتى الخروج معه صار مستفزا له. فالمرأة وإن كانت متزوجة به لم يصد هذا الأمر عنها النظرات المسدّدة إليها بشكل غفير وسافر. نظرات افتتان واندهاش وذهول. نظرات يسيل لعاب اشتهائها. نظرات وقحة كأنما تعرّيها. نظرات مسعورة كأنّما تغتصبها. نظرات مشبوبة كأنها تضاجعها. نظرات لها أيدي تتلمسها وتداعب كل منطقة في جسدها. نظرات لها شفاه تقبلها وترْضعها وتلعقها. نظرات تحرّش لم تقتصرْ على الرجال وحدهم، بل كان أصيْحباتها نساءً أيضا. جنّ جنون رجل البريد. لم يكن يحسب للأمر حسابا. فقد قصد الضاحية ليجلب امرأة بدوية تؤنسه لا غير. امرأة عادية تجزل له الحنان الذي يفتقده حتى يتقي شرّ نساء المدينة. لم يكن يحلم أن يظفر بامرأة يندر وجودها حتى في فردوس الإله، وها حياته صارتْ أشدّ توترا ممّا كان. أضحتْ مطوّقة بقلق مضاعف. غيرة ماحقة. استفزاز لا يطاق. كما لو أن حربا معلنة ضدّه، تستهدفه وحده في المكان. فكّر في أن يغيّر المدينة دون جدوى. ثم تعنّف سلوكه فجأة، وصار غريب الأطوار. ثارتْ ثائرته ذات مرة حين كان خارجا مع المرأة ذات الوشوم "عروس النهر" ووقف عند كشك ليشتري جريدة. في غضون ذلك التفت ووجد زوجته تسلّم على شخص كان من أقرباء أمّها. انقضّ رجل البريد على الشخص وضربه ضربا مبرحا. لم يكتف بذلك، فعلها لأوّل مرة. صفع زوجته وأمسكها من شعرها وطفق يبرحها ضربا أمام تحلّق حشْد من الناس. فتدخل رجل صاحب شارب أشعث يركب دراجة نارية. أمسكه الرجل الغريب من عنقه وصرعه أرضا.

– جريمة لا تغتفر أن تُهان امرأةٌ جميلةٌ كهذه. ولوْ كانتْ زوجتكَ.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

صاح به الرّجل صاحب الشّارب الأشعث. نهض رجل البريد وشدّ على زوجته من يدها وسحبها إلى البيت. منذ تلك الحادثة السوداء وهو يعتقلها في البيت، ويمنع عليها الخروج معه. أوصد الشبابيك وحرمها حتى من الخروج إلى الحمام البلدي.

مهما يكن من أمر، فرجل البريد وإن كانت لعنة الغيرة تقضم نفسه وتخرم عقله، فقد لاحظ شيئا جليلا طارئا على حياته. منذ مدة لم يتعرّض لحادثة من تلك الحوادث الغامضة والمميتة التي كانت تستهدف حياته. لعلّ أمّه صالحته أخيرا. لعل المكان أسبغ عليه بركته. تلك كانت نعمة من نعم الزّواج بالمرأة ذات الوشوم. اتّضح له أن الرجل صاحب الشارب الأشعث يمتلك مقهى قريبا من حيث يسكن. فغيّر رجل البريد سكنه سريعا. اصطفى بيتا أبعد من المكان السابق وأنأى من مركز البريد. استأنف اعتقالها وأوصد كل المنافذ إليها. حتى عندما تمْرض يأتيها بطبيبة وفي سريّة تامة. تحوّلت حياته إلى جحيم. تغوّلت من فرط ولعه بزوجته التي صار يعنّفها، وزاد من حدّة جنونه عدم قدرته على الانجاب. حتّى بيْت المرأة ذات الوشوم في وادي المئويين لم يزره معها إلا في مناسبة واحدة لا غير. مناسبة أليمة وعصيبة: موت أمّها. أمها التي لم تزرها في المدينة إلا مرّات قليلة خلال خمس سنوات متوالية. لحظة موْت أمّها حدث شيء مريبٌ. فقد تركها رجل البريد لأيام في بيت العزاء حتى يرْجع إليها بسبب التزام عمله المضغوط، وفي ظهيرة كانت تجْلس على ضفّة النهْر بذلك الخريف الأزرق، تغسل شعرها الغدافي بالأحرى، لمحتْ من خلال رغوة الصابون ظِلّ رجل واقف على صخْرتها، التفتتْ واصطدمتْ بالرّجل صاحب الشارب الأشعث. كان يحمل بندقيّة ومعه سلوقي، يتدلى أرنب وحجلتان من حزام سرْواله العسكري. لم تصدّق نظرتها. استغرب الرّجل أن يصادفها مرّة ثانية في مكان بعيد خارج المدينة. قدم لها تعزية حين أخبرته بأنها هناك لأمر طارئ هو موت أمّها، وأهداها غنيمته بعد أن أخبرها بأنه يهوى القنص، ووادي المئويين بالذات يتردّد عليه منذ زمن بعيد في كلّ خريف. لا يوجد وحيش أجمل وأمتع وأشهى من وحيش الوادي قال لها. لذلك فغواية المكان ستظلّ تستدرجه حتى آخر يوم في حياته. شكرته "عروس النّهر" على بديع صنْعه في تلك الحادثة المؤسفة بالمدينة حين تجرّأ وتدخّل ليخلّصها من جنون زوجها وندّ لسانه بجلمة صاقعة حين نبس لها بصوت أجش:

– لو لم يكنْ زوجك لقتلتهُ.

كان ذلك هو اللقاء المارق الذي جمعها بتلك الظهيرة المريبة مع صاحب الشارب الأشعث وسكن خيالها وجهه الغريب. لم يكن وسيما، غير أنّ صلابة ملامحه وشراسة الأخاديد في سحنته وصفاء الخضرة في عينيه فضلا عن صوته الفظّ، جعلتْ منه شخصا مثيرا...

كيف قاومتْ "عروس النهر" العيش بعيدا عن النّهر؟

ذلك كان عذابها الأفدح. ففي السنة الأولى لزواجها، هربتْ من رجل البريد ثلاث مرّات. آبتْ إلى وادي المئويين فقط لتصل الرّحم بالنّهر. لا قدرة لها على الحياة بغيْر هواء النّهر. عندما تأكد لرجل البريد أنها كائنة نهرية، ولا يتعلق الأمر بغضب أو تبرم، طفق يذهب بها كل يوم أحد إلى منطقة نهرية بعيدة عن الأنظار ويعود بها إلى المدينة مرات إلى أن اكتشف ملاذا آخر لها أنساها في النّهر. ولع "عروس النّهر" بألف ليلة وليلة امتد إلى كتب أخرى. فحين انتهى رجل البريد من تلاوة ألف ليلة وليلة عليها مرّات وكرّات، اقترحتْ عليه ما جعله مندهشا. لتقاوم سجنها وعزلتها

مادة محمية بموجب حقوق النشر

في قفص محكم الأقفال، طلبتْ منه أن يشيّد لها مكتبة في البيت... كيف يصنع لها مكتبة وهي لا تقرأ؟ بلى ألحّت وطالبتْ بمكتبة كتب إن كانتْ ستستمرّ معه. يكفيها أن تتأمل الكتب وتلامسها، ثمّ تترقّب عوْدته من العمل لكي يتلو عليها حكايات مجلدات لم تكن تمل من التنزه في بساتينها عبر ما يسرده زوجها، رجل البريد. المكتبة كانت تعويضا عن النّهر. المكتبة كانت نهرها في المدينة وهكذا قاومت العزلة المميتة لحياتها الجديدة بعيدا عن جبل القيامة. إلى أن حدث وومات زوجها ميتة غريبة. مات بين ساقيها. لفظ أنفاسه بين فخديها ذات ليلة وهو يلهج في ذروة مضاجعة كاسحة. فدقّت ساعة إيابها إلى النّهر واصطحبتْ معها مكتبتها إلى البيْت الأعزل فوق التلة. تلك هي أول مكتبة عجيبة تراها الطفلة "أريانا" ويسحرها وجودها على ضفّة نهر "أم الربيع".

9
النّهْر والمكتبة

نهض لوكيوس من مقعده وصاح:

– هل قلتِ نهْر "أم الربيع "؟!؟

التفت إليه الرّاكبون على متن الطائرة واستغربوا صياحه جهرا بتلك الجملة النّهرية... أمسكتْ أريانا بيده وطلبتْ منه أنْ يجلس... وهتفتْ:

– طبعا نهر "أم الربيع" يا لوكيوس، هو النّهر الذي جذبني إليك مذْ عرفت أنك من مواليد مدينة أزمور...

ابتسامتها ظلّت عالقة في ذهنه وهو يهمس لنفسه:

– كنت أعلم علم اليقين أنه "أم الربيع" منذ أوّل الحكاية، أجّلتُ الاعتقاد الصلد بذلك إلى حين انكشاف الأمر لوحده في تموجات هذيانها.

صمت للحظة مسحورا ثم تساءل هامسا دائما:

– لم أجّلت الهندية الحمراء الإفصاح عن إسم النّهر إلى أنْ بزغت المكتبة وطفتْ في إيقاع حكيها؟ أيّ علاقة أنطولوجية بين النّهر والمكتبة؟؟؟

بدا لوكيوس مثْخما بتجاذبات الحكاية وتفاقم تناسلها الأفعواني، وإن كان يغيب طويلا مع تموّج الوجوه واصطفاق المعاني فقد كان يستيقظ مع بزوغ نجوم جديدة في غسق الحكاية... فتنه في هذا الضّلع ذكْر إسم النّهر والمكتبة معا، ونبس: أيّ امرأة لعينة هي عروس النّهر!

تزامن نبسه هذا، بدخول الطائرة بيغاسوس في مطبّات هوائيّة... التفت ووجد الهنديّة الحمْراء

مادة محمية بموجب حقوق النشر

قد قفزتْ مثل ظبْيٍ مذْعور إلى شطّر آخر من البوْح (هل هو بوْح بالفعل؟؟؟)... رسم ابتسامةً وهو يستغربُ كيْف أنّ خيْط الكلام لم ينقطعْ من لسان أريانا...

10
أعراس الشاي إذْ تتْرى

أخْتها البكْر الشّقراء تزوّجت منْ رجُل عقارات، جاء إلى المكان كي يشْتري قطعة أرض محاذية، شرب الشّاي في منزلهمْ مساء بدعوة من الأب، أعجب بأختها وطلب يدها بعد أسبوع. أختها الخمرية المولودة بسنة بعد الشقراء تزوّجت من رجل مسن، فقيه بجامع في فلاة نائية، جاء بدوره إلى المكان كي يحضر جنازة امرأة عاشت مائة سنة، وشرب الشاي مساء في المنزل بدعوة من الأب، رمق الفتاة وأعجب بها وطلب يدها بعد ثلاثة أيام. أختها البيضاء المولودة بسنتين بعد الخمرية تزوجت من سائق شاحنة جاء إلى المكان كي يقل حمولة حجر لورشة بناء، شرب الشاي مساء في المنزل بدعوة من الأب، ولمحها، أعجب بها وطلب يدها بعد أسبوعين. أختها ذات العينين الخضراوين المولودة بسنة بعد البيضاء تزوجت من جندي جاء بدوره إلى المكان في عطلة صحبة زميل له يقطن التلة المجاورة، شرب الشاي في المنزل ذات مساء بدعوة من الأب، فتنه زمرد العينين وولع بهما فطلب يدها بعد يوم قبل أن يؤوب إلى الجنوب. أختها البدينة المولودة بسنتين بعد خضراء العينين تزوجت من بنّاء حل بالمكان كي يشيّد مسجدا صغيرا، وتعاقب على شرب الشاي بمساءات متواترة في المنزل بدعوة دائما من الأب، أعجب بالأخت الوارفة وتزوّجها قبل أن ينهي بناء المسجد. أختها فارعة القامة المولودة بسنة بعد البدينة تزوّجت من رجل قصير يشتغل حارسا لمكتب القائد بمدينة الإقليم، زار المكان كي يصفّي إرثا لإحدى عمّاته، شرب الشاي بدوره في المنزل مساء بدعوة من الأب وأعجب بالطويلة فطلب يدها باليوم الموالي.

هكذا تزوّجن تباعا ببركة شاي المساء، سقطن مثلما كانت تتساقطُ حبّات النبق من السّدرة أنّى تبوّلت الهندية الحمراء على سفْحها في أتون الظّهائر المشبوبة، ولم تسلم هي أيضا من زحْف هذه الدوّامة الحلزونيّة للزواج، إذ طلب يدها أكثر من شخص بذات الطريقة، ورفض أبوها أن يهبها بدعوى صغر سنّها، وبدعوى أنها آخر العنقود، بل هي الوحيدةُ التي تدرسُ ولا بدّ أن تواصل تمدرسها حتى الباكالوريا على الأقلّ.

تتذكّر ثلاثة أعراس من أصل ستة. أعراس ذات محفل صغير. رقصٌ على طول الليل. حنّاء وزغردات ودفوف تنقر بضراوة. هرج ومرج. وجوه نساء موشومات. ثرثرات تتماوج ذات اليمين وذات الشمال. رائحةُ المرق المطهوة بلحم الغنم والبصل والزبيب تفغم سماء المكان. لا مكان للقطط في الجمْهرة المحتشدة ولا صوْت يعلو للكلاب. عطْرٌ رخيص يفوحُ من الغجريّات وغجريون يكحّلون عيونهم بالإثمد. كلّ يحْمل بنديره حتى يؤمّن دخول غجريّة إلى جانبه في الرّقصة. كلّ يشحذ أسلحته ليظفر بمضاجعة فتاة على تخوم الرّقصة. أنْ يظفر بموعد في أدنى

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الأحوال. ربّما قبلة هي العزاء. علاقات تندلع وتشتعل وقد يدوم أوارها ويثمر زواجا. رؤوس شعثاء وشعور كذيول الأحصنة منهمرة حد الأرداف، جلابيب وإزارات وسراويل وقمصان تترنّح في عتمة الرّقصة. وجوهٌ تتغوّل في الظلام. تؤول إلى كتل هلاميّة كما لو كانتْ لكائنات غير آدميّة. أبياتٌ شعريّة مرتجلة في الحين. تتطايرُ مثل شظايا، من كل الزوايا. يطرْب لها الجسد ويكتوي. يشعّ بدبيب على أهْبة المغامرة. الجنوح، المقامرة، الانفلات والتلاشي. نيرانٌ غيْر نيران الطّهو. رائحة الكسكس تستشري. حبّات عنب تتساقط من صحون ترفسها الأقدام العمياء. شفاه حمراء أكثر من اللازم بالغت في صبغ العكار. شيوخ لا يقاومون شراسة الايقاع ونغم الجذبة يتسللون إلى الرّقصة. عجائز تزدهر تنهيداتهن ويلهبن الحواشي بزغردات حادة. لا يفوّتن رصْد إحداثيات ما يقع ولا يقع في معترك الرّقصة وبيْدر العرْس. يستأنف الصّخب هديره حتى تخوم الفجر، وتدقّ ساعة الفراق الأليمة، حين تغادر العروس المنزل وتشيّع بالدموع... بكى الأب كل بناته بتلك اللحظة الصّاعقة ونحبتْ الأم لفراق ذلك...

استطال تحليقُ الطّائرة بيغاسوس على غير العادة، تسع ساعات كأنّها يوم بأكلمه، لم يستشعرْ لوكيوس ثقل الوقت، لأنّه مقذوف في بساتين الهنديّة الحمراء... كان يغيبُ ويحضرُ كما لو كان يعيش ما تحكيه أريانا بالهنيْهة والدقيقة، عبْر نسْغ اللحظات المتوتّرة في حياتها المريبة.

هلْ كان يرغبُ في الوصول إلى روما بسرعة؟

نسي أصلا الوجهة التي يرومانها... فاتجاهات حكايتها نهبته نهْبا...

11
وشوم عروس النّهر

قاومت الهندية الحمراء الحنين الضّاري في منافيها الأثيرة بكلّ ما تمكله من قسوة، وظلّت وشوم "عروس النّهر" تلاحقها في كل مكان. خاصّة حين تغمض عينيها. وشومٌ تزوّق السماء. وشوم تصرّ أن تحلّق كطيور جارحة في ذهنها في الهنيهة التي تسبق عروض مسرحياتها. ما تزال تُعدّد كثافتها وتتقلّب أشكالها وتحفظ أسماءها:

الوشم الذي بين العينين يشبه نجمة القطب، أطلقتْ عليه "نجمة الأبدية"، كيف؟ عندما سألتها عن معنى ذلك، أخبرتها بأنها النّجمة التي تبقى لامعة ومتوقّدة بعد نهاية الكون، بعد انطفاء النجوم جميعا، تبقى متوقدة حتى بعد انطفاء الشمس.

الوشم المرسوم أو المحفور في الذقن يشبه شجرة أرْز، أطلقت عليه إسم "أرزة الخراب العزْلاء"... أي الأرزةُ التي تبقى منتصبة وواقفة وسط اليباب، ولا تنال منها التعرية، أو يطالها القحط والتدمير.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الوشم على الكتف، يشبه حصانا بجناحين، أطلقت عليه إسم "البراق"، الحصان الذي يمكن أن يحلق بك إلى أيّ مكان ترغبه.

الوشم على ظاهر اليد يشبه نسرا، أطلقت عليه إسم "نسْر البحيْرة"، النسر الذي يحرس بحيرة الأنوثة.

الوشم على النهد الشمالي يشبه نحلة، أطلقت عليه إسم، "نحْلة البساتين السبعة"، العسل واللدغ في آن، رحيق الجنّة وسمها القاتل.

الوشم على البطن يشبه سلّما أو أدراجا لولبية، دائري في آن كأنه مقود سفينة جبارة، أطلقت عليه إسم: "سلم الهاوية".

الوشم على العانة يشبه سنونو، أطلقت عليه إسم "طائر عشب النّار"

الوشم على الرّكبة يشبه زهرة خشخاش، أطلقت عليه، "زهرة الصابون".

الوشم على ربلة الساق من الخلف يشبه سنبلة، أطلقت عليه إسم "سنبلة الذّهب".

الوشم على ظهر القدم، يشبه عقربا. أطلقت عليه إسم، "عقرب الصحراء".

الوشم على الظهر يشبه خريطة مجهولة لكنز، أطلقت عليه إسم "غابة داغلة التيه والقتل".

الوشم على الرّدف يشبه نمرا، أطلقت عليه "نمر إفريقيا"...

مرقتْ صور الوشوم في ذهن لوكيوس، مذهولا بتلك الأكوان الدلالية لرموز جسد عروس النّهر، حاول أن يستقصي المعاني المتوحشة بين وشم نجمة الأبدية ونمر إفريقيا. أحبّ المرأة المريبة "عروس النّهر" التي ترسمها له مخيلة الهندية الحمراء أو هذيانها الآبق. تساءل باضطرام كرّة أخرى:

ماذا لو كانت "عروس النّهر" مجرّد امرأة اختلقتها مخيّلة "أريانا"؟ ماذا لو أنّ "عروس النّهر" محض تمثال لفّقه حلمُ مجاورته للهندية الحمراء، أو تخييله الآثم بالأخْرى؟؟؟

لم يكنْ هناك من متّسع لاختبار الارتياب واستقصاء نيازك الشكوك... فهلوسة الحكاية تزْحف بعشبها إلى حافّات نائيّة. تتطاير من هذر إيقاعها أشلاء معدنيّة لمفاجآت تنغرز في عضلة الذاكرة ولا يبارح التماعُها اللاذع عتمة الذّهن.

12
هلوسة الميازيب

مادة محمية بموجب حقوق النشر

هي الوحيدة دون بنات المكان التي صانتْ فرْجها من بوْل الأوْلاد. كلّ صديقاتها كشفْن عنْ فروجهنّ أثناء اصطحاب الأوْلاد إلى المدْرسة. كانوا عصابة من ثلاث بنات وستّة أولاد. يتحالفون في الذّهاب والمجيء. يقطعون الشعاب الجبليّة إلى المدرسة على مرّ الفصول. خريفا وشتاء وربيعا وفي ضلْع من الصّيف. توصيفها بأنثى الحصان أي "تاكمارت" لم يكنْ إطراء أو محْض اعتباط. بل لها ذات الشراسة والجمال. أبهج أوقاتها عندما يأتي أبوها شتاء ليحملها من المدرسة. يلبس برنسا يكاد يغطي كل جسم الحصان إلا من رأسه وذيله وتجلس خلفه ممسكة به. تنصت باعجاب لحوافر الجواد الأبيض (توأمها) وهي تحدث إيقاعا جليلا في الأرض. فيما المطر ينهمرُ وتنسكب القطرات على البرْنس متواترة أمام نظرتها. في كل قطرة تتوارى صورة وفي كل صورة يتوارى حلم وفي كل حلم تلمع ذكرى. كانت تستشعر صلابة جسد أبيها. برغم البرد الصاقع، يتسرب إليها دفء غريب له رائحة ما تزال تدمغ كينونتها. صدى تلك الحوافر وهي تبتكر إيقاعا طروبا يتقعّر ذاكرتها وسريرتها الداغلة. برغم المطر المندلق تتمنى لو أنّ الرحلة تطول وتطول ولا تتوقف أبدا. تمنّي النفس لو تصير اللحظة أبديّة وهي على صهوة الحصان خلف أبيها الذي ينتصب أمامها كما أسطورة، وتجد في اللحظات التي يختلّ فيها إيقاع حوافر الحصان مع اهتزازه أو انزلاقه مناسبة لتحضن أباها بقوّة. كما لو كان سيهرب منها. كما لو كانت ستفقده. كانت تتخيّل أجساد النّساء اللواتي فزْن بذلك الجثمان الفارع وتغار من ذلك أشدّ ما تكون الغيرة. تُعدّد في مخيّلتها النّسْوة اللواتي ولغْن بهذا الرّجل المحارب والنسوة اللواتي خبن في الظّفر برضاه. حاولتْ أن ترتّب مشاهد مضاجعاته للمرأة ذات الوشوم "عروس النّهر"، فحمحم الحصان الأبيض كما لو قرأ ما يقترفه خيالها من صور ماجنة. لم تستطع أن تتجرّأ على رسْم مشهد حميم له ولأمّها "ميسان". للحظة انسكابها في قطرة من فجْر المنيّ المارقة داخل عتمة مهبل أمّها. قطرة يحتشد فيها نهْرٌ من المخلوقات. أكانتْ لحظة ليل أم نهارا؟؟ في المنزل أم خارجه؟؟ عن رغبة وشوق واحتدام؟ أم عن ممارسة عادة رتيبة؟؟؟ طردتْ عنها الصّور الغريبة التي تصرّ أن تفخّخ ذهنها وعاودت الانتشاء بإيقاع الحوافر في الطّين. على العشب. على الأرض الصّلبة. على الأرض الصّخرية. على الأرض الطريّة. على الحصى. ثم على الزّرع اليابس. فيما الضّباب يرسم تهويماته الخفيضة، ويدلق الحصانُ بخاره الثرّ عند اللجام حيْث الأنفاس حارّة ومضْطرمة. صار حجْم الرّؤية محدودا، بسبب الضباب الشّرس المطوّق للمكان. تتحوّل اللحظة إلى حلم دامغ. لا أشهى عندها من تلك الهنيهة بالذات. لا أشهى من ذلك الضباب الأبيض النّاصع. الشّفيف. ضبابٌ سديميّ كأنّه رغوة صابون. يبدو فيه الوجود شيئا آخر. كما لو قذفا فجأة داخل مكان مجهول وهما يخبطان خبط عشواء في الطرق العذرية. أبدا لم تكن تلك طريق البيت. كانت الطريق نحو شيء أجمل من أن يوصف. أجمل من أيّ طريق نحو القصيدة أو الأغنية أو الأبدية نفسها. صحوٌ مسكرٌ مترفٌ بالبلل يجعل الجسد مخدّرا. كما لو تتفتق داخل غياهبه قدرة جبّارة غير معروفة. قدرة التوحّد مع الخارج بتلك الوهْلة من التناغم المطلق، ويستأنف الإيقاع حفريّاته داخل الأرض المطريّة، ويخلد المشهد الفاتن. هي أولى بناته التي تحظى بتعلّم القراءة والكتابة دون أخواتها، وربّما لذلك ظلّت علاقته بها صامتة، غير عادية، ينظر إليها بريبة ويرصدها عن بعد. بينها وبين حصان أبيها نشأتْ علاقة خاصّة. كيف لا وهما توأمان. ولدا في لحظة غامضة معا. وقوف الحصان قريبا من الشّجرة العزْلاء المتاخمة للبيت هي ما يجعل المنزل سحريا. البيت الذي شيّده جدّها على التلة. وحده ينفرد بقرميد أحمر. يستقطب لقالق شاردة شيّدت على مدخنته عشّا وارفا. قرميد حزين. تنبت بين فجواته أعشاب سرخسية ونجيلية وسذابية، وأزهار زعفرانية. في أوقات

مادة محمية بموجب حقوق النشر

خلوه، كانت تتسلق الجدار كي تكتشف الأشياء المرميّة فوقه، وتستلذ بالاستلقاء فوقه وهي تتأمل المزنات المارقة في سماء المشهد. لا يوجد أبهج من أن تغمض عينيها وهي مستلقية فوق قرميد البيت ثم حين تفتحهما تصادف سرب طيور جلم البحر الأبيض المتوسط أو الغاق الافريقي أو أبو منجل أقرع الشمالي يعبر سماء اللحظة. أشدّ ما يغريها هو النظرة البعيدة التي تصوّبها نحو الضواحي، الأقاصي، الحافات والضفاف، وحين يرسو لقلاق قريب منها. ترنو إليه مشدوهة وفي قرارة نفسها تحلم لو كانت مثله. لتحلّق بعيدا، بعيدا. دون أن ترْسو على سطْح أو أرْض. فقط ستدمن التحليق إلى ما لانهاية. هذا القرْميد حينما يغسلُه المطر. يصير بلون أزْهى. غير لون النّبق. غيْر لون الأجور. غيْر لوْن الخزف. غير لون زهر الدفلى. لوْنٌ يروق مزاجها. خاصة عندما يتفتق نباتٌ غريب وأعزل في خرومه. ما من موسيقى تضاهي صوت مياه المطر وهو يلتئم ويهلوس في ميزاب البيْت ويتدفّق باتجاه الأنبوب النّحاسي. تكون لحظتها تحت الفراش معمّدة بثقل زربية تجثم على الأنفاس. تطلّ برأسها خارج حاشية الغطاء وقد أيقظها عواء الرياح بساعة متأخّرة من الليل. الصّمت دامغ إلا من نباح تتناقله بشكل واهن الأنواء. فيما ميزاب المنزل الأعزل يواصل عزْفه الهارموني. كما لو أن جراح القرميد نزفتْ فيه. كما لو أنّ روح المنزل عصرتْ شراشفها في مجراه الصّقيل. كما لو أنّ أحزان اللقالق خالطتْ مجراه وانسكابه بتلك الغزارة الكاسحة. يحدث أن تعْثر على قوْقعة حلزون مدفونة بالمادة الترابية التي تلحم بين الحجر في حيطان المنزل. قواقع كثيرة تعثر عليها أثناء نبْشها للجدار وهي ترسم عليه بأظافرها. أحيانا تعثر على تمائم مدسوسة في الشقوق. على أمشاط وعظام بومة وكومات شعر وريش قطاة أو دوريّ أو خُرّق أو زرْزور. على بيض أجوف لعصافير وأحناش تاهتْ عن أعشاشها أو خرجتْ بغتة ولقيتْ حتفها بالأحرى. البيْت الأعزل الذي خُلق لينتصب على كتف التلّة. كانت البراري المتاخمة له ستبدو أشدّ وحْشة بدونه. بيْتٌ لم يُشيّدْ لتسكن فيه أسرتها الغجرية. شُيّد لغرض آخر غير ذلك يقول إحساسها المفرط. خلق لتكسنه الأشباح. ليكون منزلا ملاذا للعابر وحين يلوذ به، يكتشف أنه سقط في فخّ دوامة من الرّعب.

هذا الرّعب سوف لن يتأخّر في الحدوث. عندما ترجع ذات ظهيرة إلى البيت وتجده مندلعا بصراخ وعويل. كان موْت أبيها "بيسان" اللامتوقع.

– كيْف مات؟

مات على حصانه الأبيض وهو يطاردُ عصابة سرقتْ أبقار أحد الجيران ليْلا. اخترقه رصاص بندقية وأرداه جثة مضرّجة بالدّماء.

هي السنة التي ستغادر الهندية الحمراء جبل القيامة من أجْل مواصلة الدراسة بالإعدادية في البلدة الصغيرة المجاورة "الفراشة السوداء".

13
تقرْفصين ويزْبد النّهر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

نشج صوْتها وهي تعْبر حقْل ذاكرتها المرّة عند هذا المقام. تخضّب وجهُها بماء عينيْها الدّعجاوين. قدّم لها لوكيوس مناديل من علْبة زرْقاء. شكرتُه وواصلتْ كما لو كانت تفرغُ جوْفها من صهْد بركانٍ ظلّ مصْطخدا بداخلها... رسمتْ ابتسامة قوطيّة بعدئذ كأنما تطرد غيمة حزن لذكرى قاسية. ران صمت صلْد للحظة.

كيْف يطابقُ شكْلُ فرْجٍ هنْدسة الكوْن؟

والوشومُ التي تخضّل الجسد أليستْ ثقوبه السّود بالضّرورة؟؟؟

هاجسته هذه الصّورة الفوّارة، من فرْط إسهابها في وصْف فرْج "عروس النّهر" أنّى تبولتْ على ضفّة النّهر. فرْجُها الذي يتماهى وزهْرة الدّفلى.

للمرأة ذات الوشوم علاقةٌ غريبة مع النّهر، لا لذّة تضاهي اللحظة التي تخلعُ ملابسها عنْ جسدها الباذخ، فتصير عارية تماما، كما لو تتعرّى لرجلٍ خرافيّ تشتهي أن يغتصبها بملْء العُنف والشّراسة والهتْك.

لا غواية تضارعُ استلقاءها على العشْب، سكْرى بهذيانِ النّهر وهسيسه الّذي يلاعبُ جسدها فتنضجُ لهُ فجواتُ الفتك.

لطالما تخيّلت "المرأة ذات الوشوم" النّهر كائنا آدميا، رجلا خرافيّا، بمشاعر وعيون، فحاولتْ إغواءه... أجلْ، فتاة تفتّق جسدها عن فاكهة الجنّة، أشاحتْ بوجهها عن مراهقي ورجال الدسكرة ويمّمت به شطْر النّهر. أرّقها إغواء سلطانها النّهر...

أخذتْ تتعرّى لهُ مرّات وكرّات في الظّهائر الزّاندة صيْفا. فعلتها مرّات حتّى شتاءً. حدث هذا قبل أن ينْقشع تفّاح صدْرها. قبل أن ينبت عشْبُ حوْضها.

ثم حين كعَبَ نهْدُها واستدار ردفها وسمقتْ قامتها كأرْزة، عندها ندّت من النّهر شهقة بكْر، وتغيّرت أحواله... ما عاد يبدي عدم الاكتراث بها ويؤرق خيال جسدها... فكانتْ تستشعر بدْء ولعه بها وغرامه بجسدها البضّ. بالغتْ في استثارته، وواظبتْ على طقوس التعرّي على ضفّتيه، والاستحمام فيه... ثم اكتشفتْ أخيرا ما يلهبُ غلمة النّهر...

لا شيْء يثيرُ النّهر ويجْعله منتعظا حدّ الجنون، أكْثر منْ جلوسها القرْفصاء على ضفّته... قرفصتْ على حافته ذات ظهيرة زانية، وكشفتْ له عن فرْجها بتلك الوضعيّة الشّائنة، وهي بسنّ الخامس عشرة، فاسترْعى انتباهها أنّ النّهر أزْبد ودلق رغْوته الطّاعنة في البياض، على غيْر العادة...

هكذا صارتْ تأتيه في ظهائر بعيْنها، عنْدما يخلو النّهر من العيون المتلصّصة والرّاصدة، إلا من طيور نوء أبيض الوجه أو أبلق أحمر العجز وأحيانا طيور أطيش الشمالي، فتكشفُ له عنْ جرْحها الجوريّ المتوقّد، ويتداعى لها النّهر بالزّبد...

– تقرْفصين ويزبدُ النّهر.

بيتٌ شعريّ قاله لها "بيسان"، أب الهنديّة الحمراء ذات رقصة، كان الرجال يتبارزون في

مادة محمية بموجب حقوق النشر

التغزل بنساء الدسكرة، ومنذ نطق بالبيت الشعريّ المبين، ملك قلبها وفرْجها معا...

كان حلم "المرأة ذات الوشوم"، أن تضاعف من إضرام الشّهوة في إحليل النّهر، حتى يندلع بزبدٍ كالقيامة... كانتْ رغبتها أن يتطاير زبدُ النّهر، ويحْجب العالم ببياضه الخالص ولمْ يتحقّق لها ذلك في حياتها...

زبدُ الغواية هذا لا تحْمد عواقبه... فرغوة النّهر إذْ تترى، تترى معها حوادث الموت الغامضة.

كأنّ النّهر هو المحرّض على القتل الملتبس. ما منْ نهاية كارثيّة يستأثر بها النّهر إلا ويعتورها الغموضُ وتتقد فيها الحيرة. حيرة الوقائع الغريبة التي يتداولها سكّان الدساكر والمدن المجاورة وهم يتلذّذون بشرْب الشاي على مواقد النار وفي المقاهي الشعبية.

نبغ لسان الهنديّة الحمراء في صنع جيوب شائقة للحكاية. هي جيوب الموت التي سيزدهر موسمها الفوّاح... دون أن يضع الأمر حدّا لغواية ما سيأتي...

تمْتم لوكيوس هذه الملاحظة في داخله، وهو يحلق بفراشات خياله حول مثلّث النّهر: المستحمّات المقرْفصات. زهْر الدّفلى الذي يضرّج نهار القتل أو ظهائر الموْت. قيامة الزّبد.

الغريب أن المشْهد المسرحيّ الذي ابتدعتْه الهنديّة الحمراء بشكل تلقائيّ في حفل نهاية السنة، بالخامسة ابتدائي، كان كما لو تنبّأ بمقتل عروس النّهر... فقد ارتجلتْ وهي تصعد الخشبة عرضا غير الذي تمرّنت عليه بإملاء من معلمها، ما أن وقفتْ أمام الملأ حتى غاب عنها كل ما حفظته وتمكنتْ منه، ولتتدارك المأزق الحرج وجدتْ نفسها تختلق عرضا بديلا: (تخيّلت رجال الدّسكرة يقيمون طقس رجم للمرأة ذات الوشوم، بعد أن استنفدوا كل الطرق في إبعادها عن المكان. المكان الذي أجدب وألمّ به القحْط، فانعدم حبّ الزرْع وبار ثمر الشّجر وانقرض الطير، أرجأوا الأمر للعنة المرأة ذات الوشوم، فمنذ عودتها لوحظتْ مواسم الجفاف التي تكالبتْ على حقول الدسكرة، والسبب الدامغ هو فساد المرأة... طبْعا مصدر هذه الوسوسة فقيه ملتح وافد على المكان، هو من همس بها في آذان الرّجال، وأوْغر صدورهم ضدّ المرأة الزّانية، عبْر خطبه المسمومة. في غضون كل جمعة. بل عقب كل صلاة واجتماع.

فعلها هذا الفقيه الداعية، المكبوت، بعد أن تحرّش بها، وصدّته وامتنعت عن الرضوخ لرغباته... فأقنع بدْو الضّفاف بكلّ ما يمتلك من مهارة الخطابة وتأويل الأحاديث الملفقة، فاقتادوها ذات يوم وهي تستسحم في النهر عارية إلى قمة جبل القيامة وأخذوا يرجمونها بحجر فيما هي تصرخ فيهم بأنّها بنت النّهر بل عروسه، ما عشقتْ إلا رجلا يركب الأحصنة البيض، وهو سبب جنونها... طفقوا يرجمونها دون أن يأبهوا لصراخها، ففاجأتهم بأن صارتْ تضحك، تهاطل عليها الحجر واستبسلتْ في مقاومته، ثم قرفصتْ... قرفصتْ فندّت منهم شهقاتٌ حرّى لمرأى فرْجها الملتهب... فزادهتهم الاستثارة بفرجها الضّاري توحّشا وضاعفوا من رجْمها... ثمّ توقّفوا فجأة... حدث شيء غريب جعلهم يتراجعون عن رجْمها، عندما شاهدوا فقاعات من الزّبد تتطاير فوق رؤوسهمْ، تتفاقم وتستفحل وتستشري، كان مصدرها النّهر، الذي أدلقها بشكل غفير وغزير، فهرب الجمع بشتى الاتجاهات وهم يلهجون بأنها القيامة... قيامة الزبد التي حجبتْ الرؤية وغطّت العالم بتلك اللحظة المريبة...)

مادة محمية بموجب حقوق النشر

هكذا تخيلت الهنديّة الحمْراء المشْهد الذي ارتجلته وأدّته بإيحاءات مبهرة في حفل تلك السنة، فيما تسمّر معلّمها في مكانه مشدوها ومصدوما ليس بسبب تمرّدها على عرضه، بل لأنها نبغتْ في تشخيص مشهد جسور لا يعلم من أين استنبتته... وما هي إلا أيّام، حتى صعقها خبر مقْتل "عروس النّهر"...

ماتتْ في حريق مهول أوْدى بها في بيتها الأعزل، البيت المنتصب على تلة صغيرة تطلّ على النّهر... الأمر لا يتعلق بحادثة تسبّب فيها خطأ ارتكبته "عروس النّهر"، كما لا يتعلق بظاهرة طبيعيّة لبرْق أو موجة شمسيّة مفرطة... الحادثة كانت جريمة بفعلة فاعل... بلى الصّدمة المدوية التي هزّت الدّسكرة وقلب الهندية الحمراء، هو ضلوع خالها "داوود" في العمل الإجراميّ...

قتلها في لحظة ملتبسة، بعد أن عجز عن الحيلولة بينها وبين صاحب الشارب الكثّ، رجل الدراجة النارية (سطار star).

لم ينْس الخالُ داوود حبّ هذه المرأة الوحشيّة وإنْ هجر المكان لعشر سنوات ورجع بزوجة من الجنوب، ورهط أوْلاد... آب ظانّا أنّ جراحهُ اندملتْ وخبا نور عشْقه تماما، فلمّا وجدها بالمكان من جديد، استفاقَ ولعُه الشيطاني بالأنْثى التي عشقها حدّ الوله، وغادر المكان بسبب هجرانها له حينَ اصطفتْ "بيسان" صاحب الخيول دونه.

اقتحم منزلها ذات ليلة وهو مفرط في الشرب، امتنعت عن وصاله، فنشب بينهما عراك ختمه بأن طعنها بسكين لا يغادر جيبه... كي يغطي على الجريمة، سحبها إلى مكتبتها وأضرم الحريق في الكتب، وما هي إلا دقائق معدودة حتى نشبت النار في كل المنزل وتأجّجت وتحولت جثتها إلى فحم.

هكذا ماتت "عروس النهر" التي طالما تمنّت ورغبتْ أن تكون نهايتها في الماء، وإذا بها تنتهي في النّار... وهكذا شاء القدر السّاخر أن يكون الخال داوود الذي قبض على ردن قميص الهندية الحمراء من عنقها وهي تتبول في طفولتها لأوّل مرة تحت شجرة دفلى، وساقها لتتسجل بالمدرسة كي تتعلم قراءة الكتب. الكتب التي طالما حلم بأن يقرأها، وخذلته أمّيته المخْجلة.. ها هو ذا يحرق مكتبة بالكامل، وتغدو الجريمة مضاعفة...

حزن النّهر لموْت "عروس النّهر" المرأة ذات الوشوم، وتغوّل لونُه، وتغيّرت سحنة مياهه، وأبى مزاجه الصّفو أبدا واستطال حداده...

لم يكنْ رجل الدراجة النّارية، صاحب الشارب الأشعث، وراء مقتل "عروس النّهر" إذا كما خمّنت الهندية الحمراء وتخيلتْ.

المفارقةُ العجيبةُ، المفارقةُ المؤلمةُ واللّاذعةُ، هي أنّ ما خمّنته الهندية الحمراء أيضا لم يبارحْ بعيدا شبْهة جريمة أخرى، أنكى...

بلى، فصاحبُ الدرّاجة النّارية، كان وراء مقتل أبيها "بيسان"... الرّجل الفظّ الذي كان يتردّد على جبل القيامة ولا يستسيغ بدْو الضفاف وجودهُ، كان يخطّط لسرقة أبقار الدساكر الموزّعة على حافّة النّهر الأفعواني... تلك الأبقار التي بالغ في سرقتها سطوا بالسلاح وراح ضحيتها "بيسان"

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الذي كان راجعا ذات ليلة إلى بيته الأعزل على سفْح الجبل وصادف زمرة من اللصوص تسرق أبقار جاره، فتعقبهم وتخلصوا منه ببندقية قنص، وكان مقتله فاجعة ألمّت بالمكان.

كيف لم تكْشفه "عروسُ النّهر"، المرأةُ ذات الوشوم؟؟؟ كيف احتال عليها، ومكر بها، وجعل من بيتها ثكنة لترصّد البلدة والتخطيط لجرائمه المتناسلة؟؟؟

هناك من رجّح احتمالا آخر وراء قتل صاحب الدراجة النارية لبيسان، احتمال دامغ، هو تردّد "بيسان" على بيت عروسِ النّهر، ليْلا، بين الفينة والأخرى، إذْ لم يقاومْ "بيسان" غواية حبّه القديم لها، وطفق يخون زوْجته "ميسان". هذه التي لم تصدّق الأمر واعتبرته محْض إشاعات تستهدف شخْص زوجها النبيل، المقتول.

كان الرّاعي الأثعل الذي افتضّ بكارة فلجاء الأسنان "خُجْمة"، هو منْ اكتشف ذات ليلة أمْر صاحب الدراجة النارية، وتسلّل إلى بيْت عروس النّهر وحذّرها من الرّجل، ولم تصدّقه. ظنّتْ أنه يحاول أن يفسد الهواء بينها وبين عشيقها لا غير، لأنه يطمع فيها، وطالما تحرّش بها دون جدوى، بل صفعتهُ ذات مرّة، وما يزال أثر تلك الصّفعة يخضّب وجههُ.

ماتتْ "عروس النّهر"، قبل أن تعلم حقيقة صاحب الدرّاجة النارية الفظّ، وأجّل الرّاعي افتضاح أمره، إذ تربّص به، وجمع زمْرةً منْ رجال الدّسكرة، حتى يقبضوا عليه متلبّسا وهذا ما حدث أثناء غزْوة له وعصابته على حظيرة غير بعيدة في الضفّة الأخرى للنّهر، فمكر به الرّاعي الأثعل، وحاصره ورجاله على متْن "جسْر المصافحة" الجسْرُ الخالدُ، المتبقّي من عشر قنْطرات مدهشة، هي تحفُ بنّاء الجسور الشّهير "دالوس". تلْك الليلة انْدلع فيها رصاصٌ كثيرٌ دون جدْوى، وتمّ القبضُ على زمْرة اللصوص بعد أن سقطوا في النّهر وكانتْ المفاجأة حين اعترف صاحبُ الدراجة النارية بضلوعه في مقتل "بيسان".

غدا وجه صاحب الدراجة النّارية يلوح في منامات الهنديّة الحمراء، وتمنّت لو بقي مقتل أبيها غامضا، لأنّها صارتْ ترْغبُ في قتل قاتل أبيها ولا سبيل لها إليه أو إلى ذلك...

استلذّ لوكيوس لعبة القتل التي حدسها في التماعات سكاكين الحكاية مرّات وإن انتابه اقشعرار ودوار حين سمع بحريق مكتبة عروس النهر وموتها المأساوي، وبزغت أطياف صورة مرعبة من تحت أنقاض ذاكرته عن حريق قديم، صادم، ظل يقاوم تذكره واسترجاع أثره ولم يفصح عنه بعد.

طرد أطياف الصورة المرعبة بمشقة وعاوده الحزن بعد أن استلذ لعبة القتل النهرية كرّة ثانية، حزن على مصير المرأة الشّعواء "عروس النهر"، وحزن مكان صديقته العاتية "الهندية الحمراء" التي رُزئتْ بخطب مزدوج، خال قاتل وأب مقتول.

لم يكن يقطع نهْر هذيانها سوى تدخلات طفيفة ومتعاقبة بين الحين والآخر لرنين منبّهات الطائرة بيغاسوس، تدلق تحذيرات الربّان، بصوْت مضيفة مخثّر، أو دخول بيغاسوس في منطقة ذات مطبّات هوائية. انطفاءات الضوء التلقائية واشتعالاته كانت متواطئة مع الحكاية، كما لو كان يدبّرها سينوغرافيّ يسترق السّمع لمونولوج الهندية الحمراء. التمع في ذهن لوكيوس الإسم الجديد المستفز لوجوه وادي المئويين، دالوس بنّاء الجسور الخرافي... رسختْ صورة الجسْر المسمّى "جسر المصافحة" في باله، وتحمّس لكيْ يسأل عن حكاية "دالوس" وجسوره العشرة. ثمّ تراجع

مادة محمية بموجب حقوق النشر

حين وجدها تقفز بسيقان تيْتل صوْب ضفّة أخرى من ضفاف الحكاية الأفعوانيّة.

ظلّت الهندية الحمراء، تتسلّل إلى النّهر في الظهائر القائظة، وتستغل فراغ المكان بأوقات محسوبة بدقة الإحداثيات، وتقرْفص أمام النّهر، مغوية إيّاه، كي يزْبد... وفشلتْ في ذلك مرارا...

ربّما خذلها النّهر، لأنّ فرْجها ليْس بلون زهرة الدّفلى. خمّنت، وربّما لأن فاكهتها لم تنضج بعد... أي نعمْ فهي ما تزال لم تضعْ قدمها في أرْض التحوّلات المارقة (المراهقة).

يئستْ من التبوّل تحت زهرات الدفلى، فلمْ ينفع ذلك التمرين الطقوسي المتكرّر كي تتحوّل سمرة فرجها الزّنجي إلى ورديّ، جوريّ مرغوب...

اللذة الأولى التي استشعرتها في جرْحها القهوائيّ، هي عندما كانت تعتلي صهوة المهر الذي أمسى حصانا... أي نعم استشعرتْ نشوة بريئة من قبل، عندما كان يفاجئها الحصان الأبيض وهي تتبوّل، دبيب يكهرب جسدها حينما كان يتأمل بعينيه الواسعتين جرْحها مندلقا بخيْط البول الذّهبي. كانتْ تزجره في أوّل الأمر وهي مضرّجة خجلا. ثم ما فتئتْ يروقها ذلك، حين اكتشفتْ نشوة محتدمة وغريبة أنّى التحق بها وهي تقرفص لتتبول... الغريب حقا أنها كانتْ تحسب حسابها جيّدا، ولا تنزل لطقس بوْلها إلا حين تتيقّن منْ فراغ المكان، وتمكر بالحصان وتتركه في الحظيرة، غيّر أن رائحتها تجعله يلْحقُ بها في الحين ويباغتها بأنفاسه عند كتفها من الخلْف، وأحيانا يشمّ بوْلها المنسكب وهو يجترحُ طريقه نحو السّاقية الآسنة...

عندما كانت تعلتي مهْرها الذي غدا حصانا، ويحتكّ جرْحها بصهوته، تشتطّ به بعيدا صوب الغابة، ولا تكاد تدرك الغابة حتى تجد نفسها قد بلغتْ ذروة ما.

حدث هذا مرّات، كان تبّانها يتخضّب بللا...

هل كان الحصان يستشعر لهب فرْجها على صهْوته؟ هل كان يعي اغتصاب الهندية الحمراء له بتلك الطّريقة؟

كانت واثقة من أن بينها وبين الحصان تواطؤا من ذلك القبيل... لذلك كانت تشتد غيرتها حين كان أبوها يركبه ويغيب به، خشية أن تركبه امرأة أخرى غيرها...

كيف لا وقد حدث في طفولتها أكثر من ذلك... هي تتذكر بقوة ذات ظهيرة، نزلتْ إلى النّهر، واستحمّت عارية تماما إسوة بعروس النهر، فنامتْ على العشب الذي غادرته طيور القرقف طويلة الذيول، نامت بالفعل، وفي غفوتها استشعرتْ أنفاسا محتدمة عند حوْضها، في شقّها الخجول بالذّات، وعندما استفاقتْ، وجدتْ الحصان يشمّ شيئها الصّغير، فابتسمتْ وعانقتهُ وهي تقول له:

– نحنُ إخوة أيها الشقيّ... أنتَ توأمي أيّها اللعين...

كيفما تحوّل المهْر إلى حصان فهي لا تراه إلا مهْرا، حصانٌ طاعنٌ في البياض، بياض أشدّ نقاء من زبد النّهر، أشدّ صفاء من المزْن، بياضٌ خالص أشدّ يلقا من الثلج...

وهكذا أمسى يلازم أباها "بيسان" الذي حاول أن يتدبّر جلب فرس أنثى، كي يضمن امتداد السلالة. سلالة الحصان البربري الذي مات الثوريّ "أزكّاغ" فوقه خلال معركة وادي المئويّين.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

المعركة التي كلّفت فرنسا خسائر فادحة في الأرواح، وإن تمنكوا بعدها من غزو المكان، بفعل غارات الطائرات وهجومها المتواصل على الثغور، وأما الحرب على الأرض، فحسمها رجال "أم الربيع"، بشراسة ولقنوا الفرنسيين دروسا ضارية في فن القتال الشريف.

14
يامنة، الحوذي والحصان

لم يقدّر للحصان الأبيض "أملال" أن يزْرع نسله مع فرس جديدة، حين مات صاحبه فوقه ذات ليلة وهو يطارد عصابة لصوص... ومع موْت "بيسان"، سطا أخوه الذي يسكن في مدينة بعيدة على ثرْوته المتواضعة، بدعوى مديونيّة قديمة، وباع الحصان الأبيض لحوذيّ في المدينة المجاورة.

لم تكن الهندية الحمراء موجودة بذلك اليوم الأسود الذي بيع فيه الفرس للحوذي، فقد دبّروا لها سفر أيام للمدينة المجاورة، عند أختها البكر، وبعد ثلاثة أيّام رجعتْ وقد أثقلها شوْق الحصان، فصدمها خبر غيابه...

كيف؟ بيع الحصان....

صرختْ... بكتْ... أغمي عليها... ظلّت لأسبوع بدون أكل ولا شرب... ذهبوا بها إلى المستشفى، وبعد شهور معدودة نسيت الأمر إلى حين...

بِيعَ الحصان بأبْخس ثمن لرجل من المدينة جعله يجرّ عربة إذا. تزامن ذلك ومغادرتها سفح جبل القيامة، باتجاه المدينة المجاورة كي تكمل دراستها الإعدادية. فأقامت عند أختها البكر الشقراء، زوْجة رجل العقارات.

حدث ذات صباح أن كانت تنعطف في شارع وهي تقصد الاعدادية، توقفتْ عند شجرة خرّوب وانحنتْ لكي تحكم قبضة حزام حذائها الرياضي، فشعرتْ بأنفاس غريبة عند شعرها. التفتتْ لم تصدّق. كان الحصان الأبيض "أملال"، شمّ رائحتها وتمرّد على صاحبه الذي تركه بعيدا في أوّل الشارع وركض بعربته باتجاه الهندية الحمراء. عانقته يامنة أحرّ ما يكون العناق وتحلّقت حولهما جمهرة غفيرة، خاصّة بعد أن التحق الحوذي بالحصان، وحاول أن يفصله عن الفتاة السّمراء وهو يشبعه ضربا بالسّوط. لم يستسغْ كيف جفل وألقاه هناك وتركه وحيدا، متمرّدا على سطْوته، آخذا وجْهة الفتاة الغريبة. وقفت الهندية الحمراء بينه وبين الحوذي، وحرّضت الحوذي كي يضربها بالسّوط بدل أن يجلد الحصان...

استغرب الحشْد لهذه العاطفة الغريبة بين الفتاة والحصان... لم يستطعْ أن يفصل عناقهما وهدّدها بأن يبرحها ضربا بالسّوط إن لم تترك الحصان. فعلها ووجّه لها ضربة أدمتْ وجهها. هنا

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تدخّل الحشْد وزجروه عنْها. ثم حاولوا اقناعها بأن تتْرك الحصان ورفضتْ وهي تلتصق به مخضّبة بدموع بقّعت وجهها. لم يكنْ هناك مناص من تدخّل رجال الدرك الذين حضروا بعْد ساعة وذهبوا بهما إلى المرْكز.

هناك أرجعوا للحوذي حصانه وحذروا الفتاة من تكرار الأمر.

لم تتنازل أمّها عن الحصان بسهولة وقاومتْ حتى آخر لحظة. عمّها كان جشعا وصفّى التركة المتواضعة لأبيها أمام طائلة الديون وفق ما يزعم. لم يتبق إلا البيت الحزين المنتصب على التلة. ظلّت في عهدة أختها البكر في بلدة "الفراشة السوداء". كانت تتألم كلما رأتها تُصفع أو تُضرب بشناعة من طرف زوج سكّير. غابت شهرا عن الدراسة. كانت تلاحق في شطر الغياب هذا حصان أبيها بشوارع المدينة الصغيرة. تعقبت رائحة الحصان في كل مكان. كأنما تركض خلف رائحة أبيها "بيسان". إيقاع حوافر الحصان يتواتر بداخلها. يقضّ مضجعها. تسمع قرقعته في كل جهة. تتذكّر كيف ولدا معا في لحظة واحدة ثلجا. كيف عاشتْ معه طفولتها كمهر شقيّ. كيف ركبته مرّات وقد صار حصانا دون علم من أبيها. كيف كانت تتسلل إليه في الإصطبل وتشكو له ترّهات المدرسة. حماقات الأولاد المولعين بالبول على فروج البنات، وطيش البنات المولعات بالتلصص على المعلم وهو يتبول على جدار المدرسة من الخلْف. عن المعلم الذي يفرط في تقبيل البنات ومداعباتهن. أدمنت النظر إلى عينيْ الحصان الواسعتين. تلك الصّهبة الملتمعة فيهما يحلقان بها أكثر مما تحلّق اللقالق في الأعالي. تعوّدت أصابعها ملامسة عنقه ومداعبة شعر عنقه وذيله. لا يمكن أن يغيب عن بالها تلك اللحظات التي يتبوّل فيها الحصان قريبا من شجرة الأوكالبتوس العزلاء. تثيرها تلك الرّغوة المزبدة لشلال مياهه الساخنة. كثيرا ما تلقفتها وعجنت بها الطين وصنعتْ أشكالا لكائنات غريبة. أحيانا كانت تمسك بروثه وتسمّد به حوضا صغيرا خلف البيت وتسقيه. فتنبت أزهار بيضاء شبيهة بالسوسن. أزهار لا مثيل لها في قاموس الهضاب ومعاجم السّهوب المتاخمة. أزهار روْث الحصان تلك لها رائحة فاغمة وهي تزهر مثل نجوم في ليل ذاكرتها.

كادتْ تطرد من الإعدادية بسبب غيابها اللامبرر له وهي تتعقب الحصان حزينة في أزقة البلدة لولا تدخل أقارب بمشقّة الأنفس. أضحتْ تعرف أين يسْكن الحوذي. نبغتْ في قيافة مدار عمله وأمستْ تعرف الأمكنة التي يركن فيها الحصان قبل بدء العمل. هكذا خطّطت مرّات وكرّات وغامرت بالذهاب إليه عندما يغيب صاحبه لوهلة. فتظفر بملامسته. بلثم ما بين عينيه، بعناقه، وأمّا الحصان، فيجفل عندما تتركه، ويصرّ أن يلحق بها... فيتكرّر مشهد عراك الحوذي معها...

لا بدّ من حلّ، صارت تفكّر بتوتّر...

هاجستها أفكار مارقة، كأنْ تسرق زوج أختها البكر، ربما تشتري الحصان وتنقذه من جحيم العمل المتوحّش. فكّرت في أن تبيع بكارتها من أجل أن تحصل على مبلغ يتيح لها استعادة الحصان. قصدتْ أمها في الضاحية، هناك على سفح جبل القيامة، وطلبت منها أن تتدبر مبلغا لاسترجاع الحصان، فهي لا تستطيع أن تنام في مدينة كتلك، وحصانها بعيد عنها، فيما تراه يعذّب بشكل شائن، ويتجشّم عناء الجحيم اليومي...

الحصان المنحدر من سلالة الثوري "أزكّاغ"، سلالة المعارك الضارية التي قصمت ظهر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الاستعمار، يهان أمام عيونها... ليس حصانا وحسب، هو تاريخها ولا يمكن لمعنى وجودها أن يتحقق بدونه...

وعدتها أمّها "ميسان" بأن تتدبر المبلغ قريبا، ولو اقتضى الأمر أن ترجع لنسج الزرابي، وهذا ما فعلته بأوّل أسبوع، شرْط أن تعود الهندية الحمراء لإكمال الدراسة. ما هي إلا عشرة أيام حتى فقدتْ الأم "ميسان" بصيرتها، فحلّت الكارثة التي لم تكن في الحسبان.

رفضت الأم "ميسان" مغادرة البيت الأعزل على سفح جبل القيامة، فهناك عاشتْ أجمل أيامها مع "بيسان"، كأنّ رائحة بعلها هي بصيرتها.

جنّ جنون الهندية الحمراء، فخطّطت لسرقة الحصان... قرّرت أن تسرق الحصان أخيرا وتهرب به بعيدا، إلى أيّما وجهة، كيفما كانت العواقب وخيمة...

في اليوم الذي خطّطت للفعل حلّت الكارثة عندما سمعت مساء بالكسر الذي أصاب الجواد وهو يجرّ حمولة فادحة على الجسْر حيث زاغت شاحنة وصدمته. توفي الحوذي في الحين.

حلّت أمّ الكوارث عندما اختفى الحصان بعْد الحادثة. هناك من رجّح أن ابن الحوذي باعه لجزارين في المدينة المجاورة كي يستفيدوا من لحمه، وهناك من روّج بيعه لجمعية أجنبية تعنى بتجميع السلالة البربرية، وهناك من آمن بأن ابن الحوذي تخلص من الجواد مقايضا إياه في لعبة قمار. حاولت أن تسأله كرّات ومرّات دون جدوى، فالرجل سكّير على الدوام ولسانه يحترف السبّ والقذف ولا أحد يعلم ماذا فعل بالحصان. ظلّت تبكي الحصان لليال متعاقبة ولم تستطعْ أن تنسى رائحته وإيقاع حوافره ولمعان نجوم غير مرئية في عينيه. الحلّ هو أن تدفع لابن الحوذي كي يخبرها عن وجهة الحصان. كيف ستتدبر مبلغا مغريا. اقترحتْ على أستاذة أن تنظف بيتها وتغسل فراشها مقابل مبلغ تحتاجه. فعلتها ذات يوم أحد. ثمّ بسطتْ ورقة مغرية لابن الحوذي السكّير. أمسك بالورقة وتمتم لها:

– لن تجدي له أثرا... فقد تزامن وقوع حادثة السير مع مرور عربة منزلية لأجنبيين. زوج وزوجة، لا أعرف جنسيتهما بالضبط. تعاطفا مع الحصان، ودفعا فيه مبلغا كبيرا لكي يعتنيا بكسره... واصطحباه معهما...

هنا سقطت الهندية الحمراء، أغمي عليها...

تأكّد لها أنها فقدتْ حصانها للأبد.

اعتور لوكيوس ذهولٌ مغموسٌ في طسْت الحزْن. توتّر كطائر مذعور بين ضفتين. اعتمر زبد النّهر خياله. انشطرتْ صور البياض في رؤاه. الثلج وزبد النّهر والحصان. تساءل: هل ما تتكرّم أريانا ببوح عليه، دعوة ضمنية كي يكتب سيرتها؟؟؟ كيف أجّلت الهندية الحمراء كتاب حياتها الصادم والقاسي ولم تُمْله على محترفي كتابة السير في نيويورك؟ لم اصطفته من بين كل الوجوه التي حلقت في سمائها كي يظفر بسماع وقائع حياتها العجيبة؟؟؟

مادة محمية بموجب حقوق النشر

15
التأرْجُح بيْن ولع المسْرح وحبّ ليوسان

لا تعْرفُ لماذا تحتفظُ بجناح الحباحب في جيْبها. جناحٌ تتألّق فيه لمْعة ألوان غريبة، بين الأخضر الزمردي والأسود اللؤلؤي والأصفر الذهبي والأزرق اللازوردي والحمْرة الجلنارية... ربّما لأنّ جناح الحباحب كان يختزل الألوان الغريبة المتحوّلة في عينيْ أبيها. طالما شقّ عليها أن تحدّد أو تقبض على لوْن أحاديّ في نظرته المتشعبة. أوّل من أطلق عليها إسم الهندية الحمراء كان المعلم المتصابي وهي بالمستوى الخامس ابتدائي. وسمها بذلك التوصيف حينما شاركتْ لأوّل مرّة في مسرحيّة حفل السّنة واستقرأ فيها غرابة ونداوة غير اعتيادية. لم تكنْ بعد تدرك ما هو المسْرح والتمثيل، إذ أن بيْت أبيها الرّيفي كان يفتقد لتلفزة وكذلك بيت أخْتها البكْر بالمدينة الصغيرة. كانت تكْتفي بسماع ما يصلها من زميلاتها عن أفلام فرنسيّة ساذجة، بالأبيض والأسْود وعنْ أفلام رعاة البقر الأمريكيّة وأمّا الأفلام الهنديّة فزملاؤها الذكور من كانوا يقصّون عليها حكايات ما يشاهدونه في مقْهى مهترئ يشبه قبوا، على شاشة فيديو. طبعا شاهدتْ التلفاز عند بعض زميلاتها لكن بشكل مارق ونادر. لم تكن تميل إلى حياكة القمصان بتلك القضبان الرّفيعة التي تزاولها أغلب عانسات المدينة ولا كان يغريها الانصات إلى ثرْثرة النّساء على عتبات المنازل أو في وجبات شاي المساء. كانت تقتحم عالم الذكور بتلقائيّة. قوام جسدها الفارع والصّلب الذي ورثته عن أبيها جعلها تتقي شرّ الأذى. لعبت كرة القدم مع الأولاد وشخّصت معهم أدوار الهنود ورعاة البقر في جبل المدينة وكانت المسدّسات مصنوعة من أفكاك الأكباش. رقصتْ في الأعراس وغنّت في حفلات الإعدادية ومثلتْ في مسرحيّات بمناسبات وطنية واندلقتْ عليها عروضُ الزّواج من جنود وحرفيّين ورعاة وفلاحين وهي بعد بسنّ غضّة، وعكْس أخواتها اللواتي زوّجهنّ أبوهنّ كيفما اتفق فلتتْ من مقصلة الزّواج.

كانتْ الوحيدة من بين بنات الضاحية التي واصلت الدراسة، فصديقات مدرستها اللواتي كنّ يفتحن سيقانهنّ للأولاد كي يتبولوا على فروجهنّ، تزوجن تباعا، والأولاد الستّة لم ينفلتْ منهم إلا صاحب العين الشهلاء والبقيّة اختاروا مصير أبائهم: الفلاحة أو الجنديّة.

الولد صاحب العيْن الشّهلاء الذي نجا من بطش مصير زملائه كان يحقد عليها وينافسها بتوتّر، ويتتبّع أخبارها بكْرا وأصيلا. ذاع صيتها بالثانويّة لأمرين، مسرح المناسبات الوطنيّة، حيث كانت تفاجئ أساتذتها وزملاءها بأداء فنّي تلقائيّ مبْهر وإنْ لم يسبق لها أن شاهدتْ مسرحيّة في حياتها ولا أتمّت حتّى مشاهدة فيلم بعينه في بيوت الجيران. كان مسرح الثانوية بالنسبة لها هامشا ترتاده كيفما اتفق. دونما تخطيط مسبق. ثمة شيء ملتبس غامض يسحبها من شعرها ويزجّ بها في تلك المنطقة الملغومة. هي نفسها تتفاجأ ممّا يتفجّر بداخلها كلّما شخّصت دوْرا أو جسّدت مشهدا. أن ترتاد فتاة بسنّها تلْك المنطقة الزلقة جعل الأنظار المصوبة إليها مزْدهرة بالرّيبة. فجرأةٌ وجسارةٌ كتلك لا يمتلكها إلا المؤمسات باعتقاد الرّأي الشائع عند البنات والأولاد، خاصّة مع تحرّش الأساتذة أنفسهم والمدير الأصلع أيضا. ثمة أستاذ للغة الفرنسية، مخنّث، أعرب لها برغبة الزواج منها، فيما كانت هي متعلقة بشابّ أشقر يدرّس التّاريخ وهو الأمر الثاني المريب. شاب صعلوك تذكّرها

مادة محمية بموجب حقوق النشر

بنيته بأبيها. كان يمتلك دراجة نارية، وهو من أبناء أعيان المدينة، يدخّن الحشيش، ويدمن الشرب مع عصابة ويوقع بأجمل بنات المدينة. لم يزْعجها أنّ له علاقات سابقة مع بنات سالفات، فهي جازفتْ بعلاقة معه، كي تمتحن إنْ كان بمقدورها أن تنسيه في كل بنات البلدة والعالم، وهذا ما حصل بالفعل. كان يحملها بالدراجة النارية إلى الغابة ولم يظفرْ بقبلة منها إلا بعد مشقّة شهور. لم تكنْ فرسا سهلة وطوع الجناب. كانت شرسة، عنيدة، وغريبة الأطوار، أحبّها صاحب الدراجة النارية، أستاذ التاريخ، لأنها غيْر كلّ البنات. هو صعلوك نبيل، حال بينها وبين التدخين والشرب، وصدّ كل محاولة من أصدقاء عصابته على تحريضها كي تجرّب ذلك. علاقتها بصاحب الدراجة النارية ستطبق آفاق المدينة الصغيرة. العلاقة التي هدّدت أستاذ التاريخ بالفصْل من مهنته غير ما مرّة وبرغم النتائج الطيبة التي كانتْ تحصدها في دراستها رسختْ تلك النظرة المريبة المسدّدة إليها. كونها مجرّد طائشة ومن تحصيل الحاصل أن تكون بلا عذريّة كما يتّهمها أهل المدينة والبغاء مصيرها الأكيد.

كانتْ تلتصقُ بأستاذ التاريخ على الدراجة، ذات ظهيرة مطرية، وهو يشقّ بها طريقا وعرة في الغابة المجاورة، اندلق ضباب شفيف بغتة ولبس الخضرة الداكنة، أسندتْ وجهها على كتفه، ورسمتْ ابتسامة انتشاء غائرة، ذكرتها اللحظة بمشهد أبيها على الحصان الأبيض حينما كان يجلبها مرّات من المدرسة شتاء. سحّت دموعها دون أن ينتبه إلى ذلك الشاب الوديع الذي يوغل بها في أدغال الغابة. يركن الدراجة تحت أكمة. يخرج زجاجة نبيذ، يبدأ بتدخين سيجارته الشقراء ويكرع الكأس تلو الكأس، وهي تستلقي تسند وجهها إلى ركبته، تغيب فيما وراء كستناء نظرته وهي تلمح فيهما طائر نقار خشب أخضر يصلها طنينه من تخوم الغابة. شفة أستاذ التاريخ "اليوسان" ترْطن بكلام في اتجاه وهي تذهب بتفكيرها في اتجاه مغاير.

– كم أودّ الرحيل معك على متْن هذه الدراجة إلى مصْر!

بلى مصر، وليس فرنسا أو أمريكا كما كان شباب البلدة يحلم بذلك... حلم أستاذ التاريخ له حكاية خاصة، فهو ينحدر من أسرة علامة أديب وفقيه، من مؤسسي زاوية معْلمة فوق جبل القيامة، هي الزّاوية الدّالية. أستاذ التاريخ عندما علم بأن جدّه "يوسي" قام برحلة إلى الحجاز من أجل الحجّ برّا عبر سجلماسة وبسكرة وجربة وبرقة والمنصورية... فأقام لسنتين بمصر قبل عوْدته إلى الأطْلس المتوسّط، المغرب، طفق يحلم باضطرام كي يسلك الطريق التي سلكها الجدّ العلامة "يوسي" ويكتب سيرته المفقودة في القاهرة.

هكذا كان يحرّض في داخلها حكايات متبرعمة، تمور في مخيّلتها كتهويمات. يروقها أن تتأمله وهو يشرب ويدخّن وإنْ كانت تخشى على صحّته من الأذى. طالما أحبّت عنْفه. كان ودودا معها على غيْر العادة. ظفر بشفتيها وعناقها ومعه استطعمتْ أوّل الحبّ.

هل كان حبّا؟

لا تعلمُ ما كان الأمر حقيقة. ما تعلمه أنها صدّت مراهقي المدينة، صدّت موظفين كبارا كانوا أو صغارا، صدّت أعيان البلدة وأبناءهم وسماسرتهم وزبانيتهم ولاذتْ بصاحب الدرّاجة النّارية الأشقر.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

16
كتاب الأحلام

أوّل كتاب رأته الهندية الحمراء في طفولتها، قبل التحاقها بالمدرسة، كان "ألف ليلة وليلة" في دولاب المرأة ذات الوشوم "عروس النهر". فبيْت الأب تنعدم فيه الكتب. لا وجود حتى لكتاب الله "القرآن" ولا يلج البيت إلا نزْر وريقات كانتْ تلفّف التوابل وأدوية الزّرع وخميرة الخبز التي كان تجلبها الأمّ منْ سوق المدينة المجاورة.

لم يسبقْ للهندية الحمراء أن تلقّت تعليما في المسيد عن فقيه الدسكرة. سجّلها خالها داوود كيفما اتفق في مدرسة وضيعة تبعد بعشرة كيلومترات عن البيت الأعزل، وظلّت لسنتين تتفرّج قبل أن تلوك الكلمات وتتقن تهجيتها. قبل ذلك حدث شيء غريب لم تكشفْ عنه في أوّل الحكي. لماذا ادّخرت حكاية الكتاب السّحري إلى أن بزغ وجه أستاذ التاريخ في مويجات الحكاية المتعاقبة؟؟؟ تساءل لوكيوس. فبعد كتاب ألف ليلة وليلة الذي رأته للمرة الأولى بسن الثالثة ابتدائيّ. ستحصل على كتاب سحريّ لا يقلّ غواية وإثارة وغموضا. حدث أنْ كانت تصعد إلى أنقاض الزاوية الدالية مع الحصان الأبيض على قمة جبل القيامة. كانت تحبّ الاختلاء في تلك الأطلال وهي ترسم على الحيطان المهدمة أو تشيّد ألعابها وحيدة هناك. فيما الحصان الأبيض يراقبها ويدنو منها مرّات. خاصّة عندما كانت تتبوّل. لا تعلم لم كان يهيّأ لها أنّها كانتْ تسمع هذيانا في تلك الأنقاض. أوّل مرة حدث هذا الأمر جلعها ترتعب وتركض مذعورة. فسّرت أمّها وأبوها وأهل الدسكرة الأمر بأن المكان مسكون – أرواح وأشباح أو جنّ يقيم في المكان –. بعدئذ، ستتعوّد على ذلك الهذيان حين لاحظت أن حصانها يطرب له ولا يجفل. جسارة الحصان الأبيض جعلتها تحبّ الهسيس المندلع من الأنقاض. بلى كانت تلاوة. حسبتها ترتيل قرآن واتضح لها أنها شيء آخر. الغريب أن الهذيان كانت تسمعه وحدها. فقد رافقتها أمّها وبعض أُصيْحباتها مرّات إلى أنقاض الزاوية الدالية ولم يكنّ يسْمعن تلك التراتيل المهلوسة. تلك الزاوية التي كانت صرحا كبرج فيما مضى. شيّدها المتصوّف المدعو "يوسي"، فصارت معْلمة هندسية شاهقة، شهيرة، ذاع صيْتها في المغارب والمشارق، وأتاها طلاب العلم من كل الأصقاع، تحوّلت إلى خرائب وأطلال، بعد أن دمّرها وأحرقها السلطان العلويّ "المولى رشيد" في القرن 17 وبطش بها وبالمكان.

ذات ظهيرة، صعدت الهندية الحمراء إلى أنقاض الزاوية، ولحق بها حصانها الأبيض فتطايرت يمامات مطوقات، شرعتْ في جمع الحلزونات، وفيما هي تتبعها، كان حصانها يحفر بقدمه فجأة في ركن من الأركان. حسبتْ أن الحصان يعاني من شوك يعتور حافره. فتقدمت إليه كي تعرف خطبه. وجدته قد حفر حفرة في التراب ومنها تطل حاشية شيء جلدي. حفرتْ بأصابعها واكتشفت أن الشيء المطمور محْض كتاب. بلى كتاب جلدي. نفضتْ عنه الغبار. استغربتْ كيف أن الكتاب يحافظ على ألقه. كتابته وخطوطه. لم تنلْ منه كائنات التراب ولا تعرية الزمن. ظل جديدا كما هو. كتاب محبّر باليد. خطوطه تشبه الصّمغ الذي رأته في تمائم أمّها، تلك التي كان الفقيه يدوّنها لها كي تتداوى من أمراض شتّى. لامست عنوان الكتاب بأصابعها. لم تكن بعد تعرف القراءة. لم تكن قد ولجت المدرسة حينئذ وهي بسنّ السّادسة. الكتاب وإنْ كان غلافه مصنوعا من الجلد، فورقه

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الشبيه بالبردي، لم يهترئ ولا أكلتْ الأرضة كاغده. أي نعم الكلمات غامضة ومبهمة. لكنها بارزة ومتواشجة. مائة صفحة هي عدد وريْقات الكتاب. شمّ حصانها الأبيض الكتاب الجلدي وجفل. ركض في الاتجهات الأربع. ثم أقفل راجعا ونكس رأسه في حضنها. استغربتْ لرد فعل الحصان. لامست الهندية الحمراء الكتاب طويلا. بدا لها ملمسه سحريّا. كما لو كانت تلامس صديقا عجيبا. أحبّت الكتاب وأغرمتْ به. كان هدية عجيبة لا تقدر بثمن. حاولت أن تحفر في زوايا أخرى علّها تجد كتبا أخرى، دون جدوى نبشتْ هنا وهناك. ثم اكتفتْ بالكنز الذي عثرتْ عليه. نزلتْ إلى النّهر واسترعى انتباهها نزول سرب طيور الجلم السخامي. استلقتْ على عشب الضفة وشرعتْ في تلمّس كتابها. ارتكن الحصان الأبيض بجانبها ورصدها بعينين قهوائيتين، تلمع في صفوتهما تموّجات النّهر والأعشاب... وجدتْ نفسها تتوسّد الكتاب فجأة ونامتْ... نامت مثلما لم تنمْ من قبل... وفي نومها داهمتها أحلام مريبة. بحث عنْها أهلها بعيْد ساعات، ارتعب أبوها عندما لمحها مستلقية بدون حراك على ضفة النهر. خالها ميّتة، دنا منها وأخذ يناديها، وحين لم تمتثل لندائه حرّكها بقدمه... عندها استيقظت مرعوبة... اكتشف أبوها الكتاب الذي تتوسده وسألها من أين لها بتلك التميمة الكبيرة. تلقّف الأب الكتاب وفحصه.

– ليس قرآنا على كل حال...

تمتم وألقى به في النّهر. صرخت الهندية الحمراء وردّد جبل القيامة صرختها المدوية. دون أن تخلع عنها الفستان غطست في النّهر، نزلتْ إلى قعره وارتادتْ قيعانه بحثا عن كنزها المفقود. ظلّت تصْعد وتغْطس مرّات وكرّات، ثم رسم وجهها ابتسامة في المرّة السّابعة وهي تطلّ من صفحة المياه والكتاب في يدها.

– مجنونة...

قال عنها أبوها وهو يتركها صاعدا إلى المنزل...

جفّفت الكتاب تحْت الشّمس المصطخدة، وسرّها أنّه لم يتأثر بالبلل... حافظ على كلماته ولم تهترئ وريْقاته. أيّ كتاب سحريّ هذا! تمتمت الهندية الحمراء. ثم دسته في صدرها، وصار بعد ذلك جزءا من جسدها. تحضنه كما لو كان قرآنا مقدسا. تلعب به كما لو كان دمية. تتوسّده كوسادة ولا يفارقها حتى عندما تقضي حاجتها.

كانت تفتح الكتاب وتمرّ على الكلمات بعينيها، كلمة كلمة، تتلمسها بأصابعها كما لو كانت شيئا محفورا في الكتاب. فعلتها مرات كثيرة دون ملل. صارتْ كل كلمة في الكتاب موشومة في ذاكرتها.

لم يستطع فقيه الدّسكرة أن يفكّ طلاسم الكتاب. ذات عشاء في البيت اختطفه أبوها منها وعرضه على الفقيه الذي احتار في لغة الكتاب. لا بد أنه كتاب طاغوت قال وردّد طويلا... الشيء الذي جعل الأب يرتاب في الكتاب ويخشى لعنته. فقد حاول إحراقه ذات مرّة في غياب الهندية الحمراء وأدهشه ما رآه. لم يحترق الكتاب وإن ألقى به وسط لهيب الفرْن. عندما علمت الهندية بالأمر خاصمت أباها "بيسان". ولعها بالكتاب صار جنونا لا فكاك منه فسلّموا بالأمر، وتركوا لها كتابها تمْسكه أنّى أقامت أو ارتحلتْ.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ما داهمها من أحلام في منام الضفة على عشب النّهر لم يكن شيئا عاديا، وتكرّر ذلك مرّات وكرّات بعد ذلك. اكتشفت أنها لا تحلم إلا إن توسّدت الكتاب على ضفة النّهر. فقد جرّبت ذلك في البيت. على قمّة الجبل. في الخلاء. في الغابة. ولم يكن يحدث معها ما كان يقع عندما كانت تتوسده على ضفّة النهر بالذات. الذي كان يحدث هو أن صوْتا سحريا كان يتلو عليها كتبا في منامها. وكانت تفهم لغته أكثر مما تفهم لغة أمّها، وكانت لغته مشفوعة بصور. عبر مناماتها تلك، تأتّى لها أن تطلع على مئات الكتب من كل الأصناف. حكايات لا تقتصر على بلدها أو على البلدان المجاورة أو على قارتها. بل هي حكايات من كلّ العالم. فكانت تسرد ما تسمعه على أبيها وأمها وأخواتها ويرتعبون كيف أوتيتْ هذه البنت الملعونة موهبة الحكي. لم تكن تخبرهم أنها كانت تحلم وفقط. أذهلت معلّمها في المدرسة التي تبعد بعشرة كيلومترات، واحتار في مقدرتها العجيبة على استعراض حكايات من التراث العالمي. من أين تأتّى لها الاطّلاع عليْها وهي لا تجيد القراءة والكتابة بعد، فتلك سنتها الثالثة في حجرة الدرس.

وُشي بها ذات مرّة للمعلّم من طرف ولد عينه شهلاء، فانتزع منها الكتاب. فحصه طويلا. استغْرب أنْ يكون مكتوبا برموز. حاول أن يفكّكها دون جدْوى. أعجب بصنعة الكتاب البديعة وسألها على انفراد من أين حصلت عليه. أمسكت عن الكلام ولم تفصح له عن حكاية الكتاب. عندها فاجأها أمام استغراب التلاميذ. شرع في عقابها بعد أن ألقاها فوق طاولة على بطنها وأخذ يجلد مؤخرتها بعصا كي تعترف له. طلب من التلاميذ أن يغادروا الفصل وضاعف من عقابها... فأسرّت له تحت تعذيبه الآثم بأنها وجدته في أنقاض الزاوية. أفصحتْ له أكثر أن الحكايات التي ترويها تُتلى عليها في المنام عندما تتوسد الكتاب على ضفّة النّهر...

سخر التلاميذ من عقابها، ومن تميمتها الملعونة التي تسبّبت في ذلك المصير المخزي. غير أن الذي حصل بعدئذ جعل الدّسكرة ترْطن به طويلا. فقد نزل المعلم باليوم الموالي إلى النّهر كي يجرّب ما سمعه من الهندية الحمراء. استلقى على عشب الضفّة. توسّد الكتاب السحريّ وغاب للأبد. كيف ذلك؟ وجدوا جثته طافية في مياه النّهر ولم يعثروا على الكتاب الذي كان معه.

عندها نظر التلاميذ إلى الهندية الحمراء بريبة كما لو كانت ساحرة. أب الهندية الحمراء استلذّ موت المعلم الذي عاقب فتاته دونما سبب، وكان حين سمع الخبر قد عزم على أن يبرحه ضربا، ويفصل ابنته عن الدراسة.

تردّدت الهندية الحمراء على النّهر، وغطست لأيام في المياه بحثا عن كتابها الملعون ولم تجد له أثرا...ظلّت لشهور تفعل دون جدوى...

انقطعتْ عنها تلك الأحلام العجيبة وإن رسختْ في ذهنها مئات الكتب التي تُليتْ عليها لمّا كانتْ تتوسد الكتاب الجلدي. نبشتْ في أنقاض الزاوية بعد ذلك ربما تجد مثيلا له ولم تعثر على شيء.

الهذيان المندلع من أنقاض الزاوية لم ينقطع عنها كلما زارتْ أطلاله وكانت تترنم بإيقاعه الذي يتكهرب له جسدها. بل ترقص له كما ترقص المرأة ذات الوشم لتلاوة ألف ليلة وليلة.

أوّل مرّة ستسمح لها المرأة ذات الوشوم، بملامسة كتاب ألف ليلة وليلة بدولابها، كانت في منتصف السنة الثالثة من تعليمها الابتدائي. استدرجتها "عروس النهر" لتجرّب إنْ كانت الهندية

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الحمراء تستطيع القراءة فعلا وأبهرتها في تلاوة الحكايات التي كانت تطربها ولا تملّ من سماعها مرّات وكرّات. ما أن شرعت الهندية الحمراء في تلاوة الكتاب حتى اعترتْها الدهشة. تلك الحكايات كانت أليفة وإن كانت أوّل مرّة تقرؤها فعلا، بلى، فقد سبق لها أن تعرّفت على ألف ليلة وليلة في مناماتها على ضفّة النّهر وهي تتوسّد الكتاب السّحري. حين لاحظت عروس النّهر بأن الهندية الحمراء بارعة في القراءة وسرْد الحكايات، ستكشف لها عن مكتبتها الخاصة التي اصطحبتها من المدينة. المكتبة التي وضعتها في غرفة نومها وأما الدولاب المصنوع من خشب السنديان فمرتكن في البهو ووحده يحتفظ بكتب ألف ليلة وليلة كذكرى ثمينة وباذخة لحضور أبيها الجندي مجهول المصير.

ما أن شرعتْ أيضا في تهجية وقراءة كتب غرفة نومها، صعق الهندية الحمراء أن تلك الكتب تعرفها تماما. سبق وتعرّفت عليها كألف ليلة وليلة في هسيس أحلام النّهر.

وهكذا طفقتْ تتردّد على بيْت عروس النّهر وتمتعها بسرْد تراث مكتبتها، إلى أن صدمتها حادثة مقتلها فيما بعد وهي بسنّ الخامسة الابتدائيّة. حيث ماتت "عروس النّهر" محترقة مع مكتبتها، بعد أن طُعنتْ بسكّين ومقترف الجريمة كان الخال "داوود".

كتاب الأحلام القاتل؟ مكتبات مصيرها الاحتراق على ضفة نهر "أم الربيع "؟ كأنّها علاقة جدلية ملتبسة بين النّار والماء؟؟؟

تساءل لوكيوس وقد اشتطّ به موْج الذّهول قصيّا قصيّا...

لنْ تعاود الأحلام الغريبة مداهمة مناماتها إلا عنْدما بلغتْ سنّ الأولى ثانوي...

أحلام، كوابيس، تهاجس غفوتها في مناسبات معدودة. لم تكن مثل أحلام الكتاب الغريب السّحري. أي تلك الكتب التي كانت تُتلى عليها عبر الحلم على ضفة النّهر فتأتى لها الاطلاع على المئات منها وهي بعد تجهل القراءة والكتابة. الأمر مختلف هذه المرّة. كانت تحلم بمكتبات ضخمة. مكتبات مطمورة في أقبية تحت الأرض. مكتبات في شتى بقاع العالم ولا يقتصر الأمر على بلدها وحده.

حدث هذا الأمر في المدينة المجاورة، حيث تخطّت دراستها الإعدادية إلى الثانوية. فكانتْ ترسم خرائط المكتبات في دفتر خاصّ، تلك المكتبات التي كانتْ تحلم بها مرّات وتؤرق خيالها... الأمر لا يقف عند هذا الحدّ... كانت تحلم أحيانا بعناوين بعض الكتب المطمورة في تلك المكتبات وهو ما جعلها تدوّن تلك العناوين في دفاتر وأوراق وحتى في جرائد بين السّطور...

لا أحد كان يعلم ماذا تفعله الهنديّة في تلك الدفاتر... بعض صديقاتها اعتقدنها ترسم. مولعة برسم الخرائط لا غير وأختها البكر ظنّت أنّ ما تحبّر به الأوراق والدفاتر يدخل في واجبات دراستها. وحده أستاذ التاريخ سيعرف بحقيقة ذلك فيما بعد وقد أطلعته على بعض من أحلامها وليس كلّها بالتفصيل. خال الأمر مجرّد لعبة في الأوّل. لكنّها فاجأته ذات يوم عندما سردتْ له حلم مكتبة في مصر قد يكون مهندسها أو صاحبها هو المتصوّف "يوسي"، مؤسّس الزاوية الدالية في جبل القيامة على ضفّة نهر "أم الربيع".

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كيف عرفتْ بأمر سفر "يوسي" إلى الحجاز؟ وإقامته في مصر لسنتين؟

لم يكن أستاذ التاريخ قد أخبرها آنذاك بأنّ نسبه ينحدر من الجدّ المتصوف "يوسي" الذي عاش في القرن السابع عشر، ولم يكن بعد قد باح لها بحلمه الشخصي الذي يقضّ مضجعه منذ اختار مادّة التاريخ، حلم تلك الرحلة المفقودة إلى الحجاز بالذات. بلى، فالكتب التي تركها "يوسي"، تفتقد لرحلته إلى الحج، وإقامته بمصر لسنتين، حيث تقلد مهام القضاء هناك وتلقين علوم الفقه واللغة والأدب... تلك الرّحلة التي يود أستاذ التاريخ أن يتخيّلها عبر سفره إلى نفس المكان، برّا انطلاقا من جبل القيامة، وعبورا بسجلماسة وبسكرة وجربة وبرقة والمنصورية... ذلك كان حلمه، أن يتتبع خارطة رحلة "يوسي" ويقتفي خط سفره، ويقف على الأثر الذي دمغه في ذاكرة تلك الأمكنة. ثم يدون كتابا حول التجربة تخييلا، وهكذا يتفقد أيضا ما سمعه من مؤرخين حول زواج "يوسي" من امرأة مصرية بالقاهرة، والاحتمال الأكيد أن يكون قد خلف منها أولادا، وتلك مناسبة ليتعرف على أقربائه من الأنثى المجهولة لبلد الكنانة.

أخذ أستاذ التاريخ حلم الهندية الحمراء محمل الجدّ واحتفظ بالخارطة التي رسمتها يامنة وادّخرها لزمن موعود.

كأنها حكاية ليلة مفقودة من ليالي "ألف ليلة وليلة"، نبس لوكيوس لنفسه. استدار والتفت في الجهات. مسحتْ نظراته وجوه الراكبين على متن الطائرة بيغاسوس. كأنما ليتأكد أنه ما يزال محلقا بالفعل. فربما الأمر لا يعدو أن يكون عرضا مسرحيا لأريانا في برودواي.

لعن الرّغبة الضارية في تدخين سيجارة وحاول أن يعالج الأمر بكأس شامبانيا.

17
لعْبة الموْت النّهريّة

اتّضح أن ولد الضّاحية، صاحبُ العيْن الشّهلاء الذي كان يحقد عليها مغرم بها لا غير، وفشلتْ كل محاولاته السابقة في تلطيخها وتلويثها بالترويج باطلا لشربها الخمر وتدخينها للحشيش وممارسة الجنس مع كل أساتذة الثانوية ورجال الدرك وبعض موظفي البريد و...الخ عجز عن تجاوز امتحانات السنة الأولى ثانوي. انخرط في حزب سياسيّ أصفر. ثم تقدّم إليها بالزواج عبر التودّد إلى أمّها "ميسان". رفْضها الزواج منه سيعزّز من رصيد حقده لها. خاصة بعد أن صارتْ ملازمة لأستاذ التاريخ "ليوسان".

إقامتها في المدينة المجاورة لم تنسها في ولع النّهر، وظلّت تزور النّهر في عطلة كل يوم أحد عندما كانت تزور أمّها "ميسان". نفس الشيء تفعله أيام العطل. كيف عاشتْ أمها وحيدة في البيت الأعزل وهي بدون بصيرة؟ زوجة الخال داوود الجنوبية هي من التحقتْ بالأم "ميسان" في البيت

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الأعزل كي تؤنس وحدتها مع أولادها وتعتني بها إلى حين.

استأنفتْ طقوس تبوّلها مرّات وكرّات تحت زهر الدفلى. طالما تساءلتْ وخمّنت لم هي متأثرة حدّ الغموض بهذه المرأة الساحرة "عروس النهر"؟؟ أيكون سبب اختيارها لأستاذ التاريخ، صاحب الدرّاجة النّارية مجرّد رغبة متوارية للتشبه بالمرأة ذات الوشوم؟؟ هل تكون الدراجة النارية هي الرّابط المنطقي بين الأمرين؟؟؟ تأمّلت المصير المشترك لأبيها والمرأة ذات الوشوم. الموت قتلا. أي قصّة تراجيديّة؟

هي فصول الموت النهرية المتعاقبة كتراسل أمواج، ستصبغ ظهائر الأخبار الناعية الوادي برماد مدلهم. رماد ميْتات غريبة ستعزّز رصيد النّهر المهووس بالجثث والنهايات المدهشة.

الستهاء، فلجاء الأسنان "خجمة" لم تنعم بالزواج الذي حلمتْ به برغم حكّها لفرجها بأشكال قشرات الأفاعي، انتفختْ بطْنها فجأة، وتنكّر لها الرّاعي وإنْ كان هو مفتضّ بكارتها وصاحب الجنين، بدعوى أنّها كانت تواعد أكثر من رجل في البراري. طردها أهلها شرّ طرْد، وتكفّلت بها خالتها حتى مات خديجها.

بعد ان خذلها الرّاعي في الاقتران بها، والاعتراف بخدّيجها، جنّت الفتاة "خجمة". فلازمت الوداي وصادقته، لم تغادر تلاله وسهوبه ليل نهار. صارت شرسة وعنيفة تتوعد من يدنو منها بشر قتل. ظلّت تمشط الوادي بحثا عن الأفاعي...

– لستُ أنثى إن لم أغْو ثعبانا...

ظلّت ترْطن، وتكرّر على طول فراسخ الأيّام...

– كيف ستغوي ثعبانا؟

ظلّ الناس يتساءلون وهم يحوْقلون. طبعا أهلها سلموا بأمر عتهها المبين، وحمدوا الله أن خديج العار اختار أن ينتحر في بطنها بدل أن ينزلق حيّا إلى مباءة الخارج. ربما يتعلق الأمر بانتقام من الأفاعي. خمّنت الهندية الحمراء. فهي وحدها تعلم بأن فلجاء الأسنان كانت تحكّ فرجها بقشرة الثعابين. بدعوى أنْ تسترعي انتباه غراميل الرجال نحوها. فتتزوّج أوْسمهم سريعا.

وُجدتْ فلجاء الأسنان ذات ظهيرة فاسقة، في الوادي جثة هامدة. المريب أنهم عثروا عليها عارية كما قذفتْها أمها للعالمين. ليس عريها هو الشيء الصادم وحده. بل مشهد ذيل ثعبان يتدلى من فرْجها.

كيف استطاعتْ أن تستدرج الثعبان كي يلج جُحْرها؟ وكيف عصر فرْجها الثعبان حتى الموْت؟

الثّعبان الذي لدغها مرّات أيضا وتبادلا معا عناق الموت الغريب.

أحبّت الهندية الحمراء فتاة الأفاعي وكانت دائمة التعاطف معها والاعجاب بمخيلتها الحمقاء... أي نعم بكتْ لموت خُجْمة وحزن الوادي لفقدانها، غير أنها تساءلت:

– يا لي من حمقاء... كيف أغوتني فكرة خُجْمة حول الأفاعي وتلقفتُ قشرة ثعبان ذات ظهيرة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وحككْتُ بها فرْجي؟؟؟

تبتسمُ... ثم تنبسُ:

– مفعول هذا الأمر السّحري جاء بنتيجة معاكسة. فالفتى الوسيم المقيم في نيويورك، الشاب الذي تجشمتُ خشونة الثعبان من أجله، لقي حتفه بعد أسبوع من ذلك...

قيل أنه كان يتبارى وشبان وادي المئويين على القفز من جسْر المصافحة، جسْر البناء الخرافي "دالوس". قفز وغطس في النّهر، وترقب أصدقاؤه طفوّه. اعتقدوه يلْعب لعبة في البدء. إلا أنّ غيابه استطال... تأكّد فقدانه إلى الآن. وظلّت جثته مجهولة.

تخطّت الغرابة كل حدّ، وطفقتْ أعراسها تثْرى:

من كان يتوقّع أن تقفل الفرنسيّة "كارولين" راجعة إلى وادي المئويين، لا لكي تواصل بحثها العلمي حول سلاحف الوادي البرية، بل لتقترن بالرّاعي الأثعل. الرّاعي الذي صادفته الهندية الحمراء ذات ظهيرة شعواء، على سفح تلة متاخمة للنّهر، خلف سدرة وهو يقترف أحد طقوس مجونه وأثارها بشكل ناهب أن "كارولين" هي ضحيته هذه المرة وليس فتاة أليفة من المكان. بعد أن حشا مؤخّرتها بالنبق الذي كان يقطفه من السّدرة، أخرج من كيس بجانبه، عشرات السلاحف، وطفق يمرّرها على جسدها وهي مستلقية. طمرها بالسلاحف وهي تهذي بأصوات لذّة جنونيّة، لم يستطع هدير النّهر حجبها عن آذان الظهيرة.

تزوّجت من الرّاعي الأثعل الذي كان دليلها إلى سلاحف الوادي وسافرتْ به إلى مدينتها باريس.

لفّعت وجه لوكيوس ضحكة متعاقبة التموّج. فبعد رياح المآسي التي صقعتْه، ها هي ذي شمْس الكوميديا السّوداء تلطّف من قسْوة التراجيديا. ضحك طويلا. ثم ران صمت جليل بعدئذ. الصّمت الذي ستخلخله أريانا بضلْع منشطر ومنزاح من سيرتها.

18
زهْرة خشْخاش عزْلاء

كانتْ سنةً عصيبة، شهدتْ وفاة أمّها شتاءً... دفنوها بجوار قبْر الأب على سفح جبل القيامة المطلّ على نهْر "أم الرّبيع"... ظلّت الهنديّة الحمراء تزور القبرين كل يوم أحد. حتى حال بينها وبينهما حدث صاعقٌ مضاعف...

– لا أعلم من فرط حبي لأستاذ التاريخ نمتُ معه ذات مرة دون أن أعي ما حصل، اكتشفت أنني منحته بكارتي... كيف حصل الأمر لا أصدّق... فقد كنت حريصة على نفسي ويستحيل أن

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أهب زهرتي هكذا ولو على سبيل الحبّ المنفلت... حدث في لحظة غامضة التبس فيها عليّ العالم. لحظة مسرفة في الضباب وطاعنة في السّديم. لحظة شعْواء... كنا قد ذهبنا معا إلى النّهر على دراجته النارية، تلك هي المرّة الأولى والأخيرة التي أزور فيها النّهر معه. سبحنا معا حتى تخوم الظهيرة أمام رصد عيون طيور الغرغر والقطرس. ثم صعدنا جبل القيامة وتضاجعْنا في أنقاض الزّاوية الدّالية... ضرج دم بكارتي عشب الأنقاض كما لو كان زهرة خشخاش عزلاء نبتت فجأة في خراب المكان.

اعتقدتُ الرّجل سيتدارك الأمر ويطلبني للزواج بعدئذ... غير أنّه اختفى تاركا لي رسالة... اختفى وقد ترك التدريس نهائيا. اختفى ولم يشهد أثره أيٌّ من أصيْحابه وأقربائه... خرج من المدينة خلْسة دون رجعة وتركني أجابه كابوس الصّدمة وحدي:

(هنديّتي الحمراء

ليس جبنا أن أتركك وحيدة في المدينة العزلاء تواجهين قدرا لئيما...

ليس نذالة أن أتخلى عنك في غمرة هذه اللحظة العنيفة...

وليس هروبا منك أو من الآخرين...

شكرا لأنك صنعت لي جناحين... وبهما سأحلق الآن...

بلى هذا أوان السّاعة الشّاهقة التي طالما حلمتُ بأن أرْكض وراء حقيقتها الغامضة والمغوية...

السّاعة التي تختزل تاريخ حياتي المتوتّرة والمبْهمة...

قرّرت أن أسْلك الطريق التي سلكها الجدّ "يوسي" إلى الحجّ وإقامته في أرض الكنانة، مصر لسنتين... سأدوّن رحلته عبر تخييلي وما يمكن أن أعثر عليه من أثر سيرته عبر طريق الرّحلة الأفعوانيّة... ولنا لقاء عند عوْدتي من القاهرة...

كنت دائما تقولين لي: قد لا ترجع من مصر كما فعل بعض أجدادك الذين اقترنوا بمصريات وضاعوا هناك...

سأفعلها كما فعلها الجدّ الأمين الجَسُور "يوسي"، هي إقامة مؤقتة في سبيل استكشاف رحلته الحجازية، ولي عودة مظفّرة بكتاب مبين...

رجل التاريخ الذي يحبّك

ليوسان)

كانت تلك رسالته المقتضبة، مثل صفعة أسقطتْ وجهها عن صرْح جسدها... ها قد ترك حلم الهندية الحمراء وسافر من أجل حلمه هو...

خيّم سوادٌ مقيت عليها تلك السنة، زاد من بشاعته تحرّش زوْج أختها بها، فشرعتْ تفكر بجديّة في الانتحار...

مادة محمية بموجب حقوق النشر

صعدتْ ذات يوم جبل القيامة وانتصبتْ على الحافّة مغمضة العينين... عدّت حتى عشرة كي تلقي بنفسها من حافة الجبل السامق إلى النّهر... قبْل أن تصل إلى عشرة حلّق طائر غريب كبير الحجم خفيضا من رأسها... كان بشروشا تخلّف عن سرْب حطّ لتوّه على ضفّة نهْر "أم الربيع"... سقطتْ منه ريشة صقيلة تطايرتْ وداعبتْ شعرها ثمّ انحسرتْ بين قدميها... سدّد البشروش إليها نظرات غواية صاعقة، كأنه رسول بعث إليها كي ترتدّ عن أمر قتل نفسها، رسمتْ له ابتسامة بشكل تلقائيّ، عندئذ حلّق الطائر عاليا ثم حطّ على الضفّة... هناك في هاوية الوادي... نظرتْ مليّا واسترعى انتباهها زبد النّهر... جاءها صدى النّهر هادرا ومهيبا وأنصتتْ له بامعان... جلستْ على الحافّة وأدلتْ ساقيها... ظلتْ ابتسامة الذهول مسطّرة على وجهها، وهكذا تراجعتْ عن قرار الانتحار...

ولدُ الضاحية صاحب العين الشهلاء بعد فشله في السياسة، تحوّل إلى فقيه بقدرة قادر، وأمسى يؤمّ المصلّين ويخْطبُ فيهم أيّام الجمعة وغير الجمعة في مسْجد وادي المئويين. صار يفصل في الحلال والحرام كيْفما اتفق، ويفتي في الجائز والممْنوع. مثل شرطي مرور يقفُ على الطريق المؤدية إما للجحيم أو الفردوس. فعلها مرّة أخرى، بعد أن أفلستْ حملته المسمومة ضدّها وزار أختها البكر ذات مساء، وجدّد طلب يد الهندية الحمراء، بعد أن أسهب في الخطابة وزعم أنه منقذها من الضياع المحيق بها...

لم تصدق كيف أنها فكرت بجدية في عرض الزواج تلك المرة... لقد كانتْ تبحث عن مخرج لمأزق فقدانها لعذريتها... خمّنت ربما يكون الفقيه المعتوه ملاذا أرحم من المصير الأسود الذي ينتظرها ويتربّص بها بعد موْت الأمّ...

– سأفكّر في الأمْر قالتْ لأختها البكْر...

هذه التي لم تتوقّع جوابا كهذا من الهنديّة الحمراء فاعتمر الذّهول وجْهها المنمّش...

19
المستحمّة والنّمر

في اليوم الموالي زار فريقٌ سينمائيّ فرنسيّ الثانوية بغْية الاستعانة بفتيات كومبارس من أجْل تصوير مشهد على ضفّة نهْر "أم الربيع"، واختيرت الهندية الحمراء ضمن الفتيات اللواتي سيسجّلن حضورهنّ في المشْهد...

< ثمة زوْجة فرنسيّ ستستحمّ عارية في النّهر، ثمّ تأخذُ حمام شمس على صخرة بازلت، وهي مستلقية على الصّخرة تتلذذ بزحْف أشعّة الشمس على مملكة جسدها البضّ، ستشعر بأنفاس غريبة كأنّما تشمّها... كانتْ مغمضة العينين فخمّنت ربّما هي تحلمُ... ربّما هي قيلولةٌ وستتبخّر... زحفت

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الأنفاس من أصابع قدميها حتى حوضها... واستقرت عند عانتها الحمراء... أنفاس مندلقة غير آدمية بالمرّة... استلذّت الفرنسيّة تلك الأنفاس وشعرتْ بانتشاء محتدم عصف بها فجأة وكادت تبلغ بها الذروة، حين فتحت عينيها اكتشفت أن نمرا يقف عند جسدها العاري وهو يستطعم رائحة فرْجها الوردي... ارتعبتْ حدّ الموت... لم تندلقْ منها صرْخة... رفع النّمر رأسه ونظر إليها بعينين بلّوريتين تتمازج فيهما الخضْرة مع الزّرقة وتتماوجُ في دوّامة ألوان ساحرة، رأت الفرنسية وجهها في عينيْ النّمر... شعرتْ بأنّ الأبدية تعسْكر في جسدها بتلك اللحظة اللاتصدق...

عندئذ سُمع لطلقة بندقية صدى فرقعة فتراجع النّمر إلى الوراء ومشى بخيلاء ثم ركض واختفى في غابة البلّوط... بقيت زوجة الجنرال الفرنسي متسمرة في مكانها للحظات طوال، ثم صرختْ بعدها صرخة مدوية ردّدها جبل القيامة بشكل متواتر... جنّ جنون المرأة وصارتْ تحلم بالنّمر...
<

ذلك هو المشهد الذي سيصوّره الفريق السينمائي على ضفّة نهْر "أم الربيع"، ولكي ينجزوهُ باحترافيّة عالية الدقّة، جلبوا نمر سيرك مع مدربّه الروسي من موسكو، وكان كل شيء جاهزا لتشخيص المشهد ذات ظهيرة على ضفّة نهْر "أم الربيع"... عندما شرعوا في التصْوير لحظة دنوّ النّمر من المرأة وهي ممثلة أمريكيّة شهيرة، لم يكدْ يشمّ رائحة فرْجها حتى تبرّم عنها وركض إلى الغابة واختفى... اختفى حقيقة وليس تمثيلا... ركض المدرّب الرّوسي خلفه دون جدْوى... فعلها النّمر وتحرّر أخيرا، فالتحق بالغابة السوداء...

نمرُ سيرْك يلوذ بالفرار في غابات الأطلس المتوسط... كانت مادة دسمة للصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية لتزْرع الهلع في قلوب الأهالي... فأُسطرت الحادثة وصار الناس يتداولون لحظات رؤيته وانقضاضه على الماشية ومبارزة رجال بواسل له...الخ

أنْفق مدرّبه الرّوسي سنة كاملة بحْثا عنْه في غابات الأطلس وحين تأكّد له يقين فقدانه سلّم بالأمر...

مذ تعرّف إلى الهندية الحمْراء خلال المشهد على ضفّة النّهر وهو مهتمّ بها، كان يزورها في الثّانوية ويقابلها خلْسة في خلاءِ المدينة... شيءٌ سحريّ جذبه إليها. طفق يردّد دائما:

– أنت قوقازيّة...

آمن بأنّ النّمر رجع إلى مكانه الطبيعي وأفْصح للهندية الحمراء بأنّ النّمر من أصول شمال افريقية، منْ سلالة مغربيّة بالذات هرّبها الفرنسيون أيام الاستعمار إلى باريس وتلاقحتْ مع سلالة روسيّة، ذلك هو السبب الدّامغ الذي رجّحه كتفسير لهروب النّمر. ليس هربا بل عودة لمكانه الأصلي وهو لذلك مرتاح، بل سعيد قال لها مرّات...

فاجآها ذات صباح وطلب أن يتزوّجها وتصْحبه إلى موسكو، فإنْ فقد نمرا في الأطلس المتوسط فقدْ عثر على نمرة (إنسيّة) يودّ الارتباط بها إلى الأبد...

لم يكنْ للهندية الحمراء من بدّ كي توافق، خاصة بعْد موت الأم وفقدانها لبكارتها، وتشتّت أخواتها...

مادة محمية بموجب حقوق النشر

لم تخبرْ أخواتها حتّى، وصاحبتْهُ وافتقدتْ أخبارها بعدئذ...

بكى أخواتها لفقدانها أيّاما ثم نسيْنها وانصرفن لدوّامة عيشهنّ القاسية وكذا طُوي ذكرها عند بعض صُحيْباتها النّادرات...

في موسكو سيحقّق مدرّب النّمور حلمها بأنْ تلتحق بدراسة المسرح، وهناك درستْ خمس سنوات في معهد العاصمة الشهير فأطلق عليها أستاذها لقب أريانا بدل يامنة. صارتْ يامنة هي أريانا إذن وتعلّمت الرّوسية والإنجليزية معا وسرْعان ما ذابتْ في صلْب المجتمع الرّوسي وغدتْ قوقازية بامتياز...

لعبتْ لألكسندر أستروفسكي وستانسلافسكي وفلاديمير نيميتروفيتش دانشينكو وتشيخوف وتولتسوي ومكسيم غوركي ويفغيني فاختانغوف وفسيفولد ميرهولد وألكسندر تاييروف وميخائيل بولغاكوف وإيزينشتين وروبين سيمونوف وتوفستونغوف وأناتولي فاسيلييف وغومبروفيتش وسلافومير مروجيك... الخ

عروضها المتألقة صخبتْ بها مسارح البولشوي ومالي وموسوفييت وفاختانغوف، مسرح موسكو الفنّي ومسرح سوفر يمينيك ومسرح مایاكوفسكي ومسرح لينكوم...

هذا قبل أنْ يتلقّفها مخرج إيطالي لتلعب دور هيلين في فيلم تاريخي، في روما ستؤدي ثلاث مسرحيّات كلاسيكيّة لأسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس، وهو ما جعل أحد كبار مخرجي برودواي من أصل إيطالي يجلبها كي تمسرح شخصية ميديا ليوربيديس كأوّل عرْض لها في أمريكا...

مع دخولها برودواي شعرتْ بأنّ هذا الشارع خُلق لها، ثمّة حكاية غامضة تنتظرها في أدغاله... صاحبها زوْجها مدرّب النمور الذي كان دائم السّفر، وهناك ستلعب ليوجين أونيل وتينيسي وليامز وآرثر ميللر، قبل أن تنفتح على المسرح العالمي برمّته، فزاوجت بين الريبرتوار الكلاسيكي والحديث، ولعبتْ لشكسبير وإبسن وصمويل بيكيت وبريخت ولويجي براندلو... الخ

قبل أن تفتح لها السينما بابا سحريّا أطلّت منه على العالم فذاع صيْتها وطبقت شهْرتها الآفاق... ما يطابق ثلاثين سنة أنفقتها في برودواي وحده، صنعتْ مجدا يندر حدوثه في تاريخ المسرح والسينما معا. ظلّت وفية لزوجها الرّوسي مروّض النّمور الذي لقي حتفه بعد عشرين سنة من الزواج. مات إثر حادثة مأساوية في الهند، حين غدر به نمر أسود من أصول بنغالية وفتك به في عرض أمام الجمهور... لم تتزوّج الهندية الحمراء بعده، وأكرمته بدفن جثته في قرْيته بضاحية موسكو على ضفة نهْر "موسكوفا".

من فرْط تماهيه مع هذا الطّور من سيرتها الفنيّة، لم ينتبهْ لوكيوس لنزول الطائرة بيغاسوسْ في مطار روما إلا حين شاهد الركاب يقفون وهم يتأهبون للخروج من البوابة الأماميّة. لم يصدق التسع ساعات التي استغرقها السّفر من نيويورك إلى العاصمة الإيطاليّة. نهبته الصّورة الموجزةُ لقدر الهندية الحمراء اللعين، وسحرته تحوّلات شخصيتها وأسفارها الطروادية بيْن موسكو وروما ونيويورك. كلّ هذا المجْد الشاهق كان رهينا بمصادفة! أهي مصادفة بالفعل؟؟؟ نمر سيرك يهرب في غابة الأطلس كان السبب العجيب وراء تعرّفها على مدرّبه الرّوسي، هذا الذي سيحلّق بها من

مادة محمية بموجب حقوق النشر

جبل القيامة إلى عواصم العالم الشّهيرة، فيتخلّق أثرها الصّاعق هناك... لم يكنْ عبورها لتلك العواصم إلا غائرا في ذاكرة المدن. كان عبور نمرٍ دمغتْ ألوانه المرقشة سماء وتراب وتاريخ تلك الأمكنة. بلْ زمنها السرّي والطقوسي. عنْدها أدرك لوكيوس العمق المفْزع في نظرة الهندية الحمْراء. أدْرك غموض الأطياف المارقة في وجهها المريب. أطياف رومانيّة وإغريقيّة وعربيّة وأمازيغيّة وفينيقيّة وإفريقيّة وقوقازيّة و... موجز تاريخ الجمال المتوسّطي بالأحرى...

20
روما

وصلا روما ذات صباحٍ يعتورهُ الضّباب. معا لمْ يدركا كيف تبخّر وقت السّفر بالطائرة. هو حصانُ بيغاسوس إذا. حلّقَ بهما من نيويورك إلى رُوما، كما لو في حلُمٍ. هل كانتْ تهذي على طول فراسخ السّفر؟ تساءلتْ. هل كانت تعي ما تحكيه؟ لم يكنْ هناك شيء مرتّب مسبقا في ذهنها، لم يكنْ في نيتها أبدا أن تسرّ لصديقها، مصوّرها لوكيوس بكل تلك التفاصيل المارقة. كيف حدث الأمر؟؟؟ لا تعلم بالضبط. أيْ نعم لوكيوس صديق مقرّب وبينهما تاريخ مشترك. لكنّها لم تكشفْ له فيما سلف عن أدغال طفولتها أو أطوار من حياتها، كلّ ما أفصحتْ له في مناسبات نادرة، هو أنّها مغربية وليستْ روسيّة أو إغريقيّة كما يتداولون. أخبرته بالأمر حين اكتشفتْ هويته المغربية أيضا عكس ما يُروّج عنه كإيطالي بسبب لقبه الروماني "لوكيوس" أولا، وبسبب عيشه لردح من الزمن مع السيدة "سالفيا" التي يظن الكثيرون خطأ بأنّها من أنجبته، فلوكيوس ثمرة خالصة لزواج مغربي صرف في مدينة أزمور. بعد وفاة أبيه الأصلي الذي كان يحترف صناعة المراكب والفلك البحرية إثر حادثة مأساوية، وجنون أمه "عائشة الزمورية" المحقق، وهو بسن السادسة، سيتبناه صديق أبيه صانع الساعات المشهور بلقب "دافنشي أزمور" وكان متزوجا من السيدة الايطالية المدعوة "سالفيا".

هرع لوكيوس إلى شقته في شارع "فيا ساكرا"، وفضّلت أريانا الذهاب إلى بيت تمتلكه على ضفّة نهْر "التيبر" حيث أقامتْ لزمن قصير في إيطاليا حرصا منها على استرجاع ذكريات غائرة لها بالمكان حين صخبت مسارح روما بعروضها الكلاسيكية لكل من أسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس...

هاتفته ظهيرة اليوم الموالي ونزل إليها، وجدها قد استأجرت سيارة، فتسكعا طويلا وهما يرتادان أمكنة موشومة بذاكرتهما الخاصة. أمكنة شهدت مغامرات وتورايخ فارقة في حياتهما. هي عرجتْ به إلى مسرح "الكوليزيوم" وحمامات "كاراكالا" التي خلدتْ فيها مسرحياتها الشاهقة، وأطلعته على منازل ودور وقاعات، تمرّنت فيها طويلا، وقادته إلى جهات عزلتها الأثيرة في المدينة.

مادة محمية بموجب حقوق النشر